تركتُ قلبي بقربك

روايــة

محمد ثابت توفيق

قالت ببطء ظنه سكينًا حادًا، لا يغوص في دمه، فحسب، ولا ينتشر في جسده، بل كأنه انغمس في عقله، فشلّه عن معرفة مكانه وزمانه:

- اختر لك واحدة منا...

نظرات عينيها بالغة الحدة، إنها ليست «سماء» التي لقيها في هذا المكان نفسه منذ عام ونصف العام تقريبًا، لم تكن المرة الأولى التي يختلفان فيها، ولكنها كانت الأبرز منذ عرفها.

في تلك الليلة التي تبدو بعيدة جدًا الآن، زغردتْ أمه للمرة الأولى منذ وفاة أبيه قبل ستة وثلاثين عامًا، وقبل أن يرى هو النور بعدة أشهر، إذ توفي الشيخ «المُسافر» كما كان يحلو لأهل القرية اختصار اسمه، قبل أن يرى هو أول شعاع من ضوء الشمس، توفي أبوه وما رآه، إذ كان في بطن أمه ساعتئذ.

حاول البحث عن شيء يتعلق بصره به، بعيدًا عن بالغ حدة

نظرات «سما» كما كان يحلو له أن يرخّم اسمها، بل كما ناداها منذ ثوانٍ، وهي تمر بغرفة «الضيوف»، وتدري أنه في بيتهم فلا تتوقف أمامه ولا تسترق النظر إليه، ثم تدخل خجلة تكاد تتعثر في ثوبها، وبين يديها كوبان من العصير، شتاء وصيفًا، ربيعا وخريفا، منذ عرفها تأبى أن تذيقه الشاي:

- خطر على الصحة يا «خالد»... تلك «البُنّيات» من الشاي والقهوة والمُنبهات بجميع أشكالها وأنواعها، حتى الحديث منها، القهوة باللبن «النسكافية»، حتى «الكابتشينو» مهما سمَّوها خطر على الصحة...!

ثم تصمت وتنطق عيناها بكلمات كانت تجعل إصراره على إكمال بيته يزداد... حتى يجتمعا فيه، فيخرج من بيتهم أكثر شجاعة واحتمالًا، ورغبة في إسراع خطاه نحو «العُش» الجميل الذي سيجمعهما معا...

فما لها الليلة؟!

مرتْ بغرفة الجلوس مسرعة، وكأنه ليس فيها، تجرأ قبلها

واتصل بها على محمولها، لم ترد، فكتب على عجل، وهو في زحام «الحافلة العامة» يرقب المحطات من النافذة، ويعاني العرق الشديد، ومحاولته الابتعاد قدر الإمكان عمن أمامه من الواقفين، وصرف تفكيره عنهم...

وصوت الرنين ينتهي من هاتفه المحمول بلا رد من الطرف الآخر، كتب لها رسالة على عجل، أمسك بالجهاز بصعوبة بيد، وكتب بأخرى في الزحام محاذرًا الاصطدام بأحد، وعقله يعمل بسرعة:

- هل هي مدركة لموقفي الآن؟

هل تعرف أني أقطع القاهرة من عمق الشرق من مدينة نصر حتى بيتهم في الجنوب في نهاية شارع فيصل مرة واحدة في الأسبوع أعيش عليها بقية الأسبوع، لأعمل طوال اليوم وأكِدّ وأجتهد بحثًا عن إتمام «محارة الشقة» التي تسلمناها في ضواحي مدينة ٦ أكتوبر، على الطوب الأحمر؟

هل تعرف أني أحاذر أن أنفق مليمًا في غير مكانه، حتى ولو

بركوب سيارة أجرة جماعية لا سيارة أجرة، مجرد «ميكروباص» لتوفير جنيهات، برغم أني قادم إلى بيتها، أجمل البيوت الخاصة في القاهرة في عيني وأحلاها، بل لأجل بيتهم، بل طابقهم، بل شقتهم، من أجل المائة متر التي تقيم وأسرتها فيها تمت عمارة القاهرة كلها في رأيي، وأصدر أوامره «جوهر الصقلي» ببنائها قبل أكثر من الألف عام، لتصير، لديه، القاهرة مدينة جديدة، تجمع شمل أحياء في سعادة نادرة في هذه الحياة.

- هل تعرفين أننا متزوجان، معقود قراننا، مكتوب كتابنا...؟

جاءه الرد بعد ثوان عبر رسالة من هاتفها، فلكأن قمرًا في قلب ليل بصحراء معتمة أضاء فجأة، أراد أن يقرأ كلماتها على الفور، لكنه خاف أن يلمحها أحد الواقفين إلى جواره، غار على «سماء» من نظرة عين آخر إلى رسالتها إليه، غار عليها أن يكون القارئ محرومًا، أو لم يستطع بعد الوصول إلى تكوين عُش مثله، ولو في مرحلة متعبة كتلك التي يعاني منها الآن، خاف على حبيبته وأنيسة روحه من أن يقرأ عابرٌ كلمة نقرتها له بأصابعها على المحمول، فدارى بيده الجهاز وأمسك به بحذر بالأخرى،

ليداور، ويلف بها متحسسًا محفظته لئلا «يُسرق» في غمرة انشغاله بـ«سماء» وما خطته وما أرسلته إليه:

- نعم أعرف...

- لماذا لا تزيدين؟

لماذا لا ترد على سؤالي بوضوح؟

لماذا لا تقول لي عما أغضبها مني؟

فرمل السائق سيارته بقوة؛ لئلا يصطدم بشاحنة في تقاطع ميدان الجيزة قبل أمتار من كوبري فيصل، شعر بالراحة أن الوقت مر خلال سرحانه في «سماء» حتى لو كان وقتًا من التفكير المرير...

نزل سائق الحافلة ليتحدث مع سائق الشاحنة، ونزل عدد من الركاب، صاح المحصل:

- الذي سينزل يحتفظ بالتذكرة، الصعود من الباب الخلفي بالتذكرة، لا يظن أحد أنها زحمة فيصعد راكب جديد دون أن يدفع!

استنشق هواء أكثر لما خف الزحام، ومن مكانه القريب من الباب الأمامي، إذ اضطره الزحام إلى الحاجز الزجاجي الملون الذي في ظهر السائق، يفصل بينه وبين الجالس على الكرسي المُفرد الأول وبين الزحام من خلفه، كما يفصل حاجز حديدي قصير بينه وبين الواقفين إلى جواره بخاصة مع اشتداد الزحام.

وجدها فرصة لأن يجلس قليلًا على مقعد تركه صاحبه ليشهد المشاجرة، وفوجئ بالراكب يقول له عبر النافذة المفتوحة:

- لما أعود سأجلس مكاني يا «باشمهندس»؟!

كان يريد أن يقول له إنه ليس من الذين يتعدون على أماكن الآخرين بداية من بسيطها، وإلا لما كان معه في «الحافلة العامة» الآن، لكنه اختصارٌ للوقت والجهد قال ببطء:

- لا تخف!

صارت المشاجرة حامية الوطيس، يراقبها بنصف عين وقلب، ويتحسر إذ إنها ستطول من قرابة نصف الساعة حتى ثلاثة أرباعها، سيتأخر على «مالكة القلب» التي لم يعد لديه غيرها بعد خالقها، ووفاة والدته عقب إطلاقها «زغرودة» كَتْب الكتاب بشهور، وكانت آخر كلماتها في المستشفى الحكومي:

- لا تتركي «خالد» بمفرده يا ابنتي... ليس له من بعد الله، الآن، إلا أنت... هو طيب القلب، ويحتاج إلى حذرك وحنانك... هل تعد... تعدينني؟

وفيما كانت «سما»، كما يحلو له أن يسميها، تهز رأسها ببطء كعادتها، فيما دموعها تنساب، كانت أمه تسلم الروح بعدها بلحظات قليلة، يومها كانت المرة الأولى التي تراه زوجته مع إيقاف التنفيذ، كما يحلو له أن يداعبها بينه وبين نفسه، وبحذر وخوف ابن القرية لا يستطيع إخبارها بهذا الحكم الذي أصدره على نفسه وعليها، حتى الآن.

يومها رأته يبكي بعنف للمرة الأولى، بكت بهدوء ثم قالت، وهي بعيدة عنه بخطوات كعاداتها، فيما أبوها يهرول لاستخراج شهادة الوفاة، ويتابع الإسعاف التي ستصحبهم حتى قرية الصف على مشارف مدينة الجيزة:

- تخفي عنا كل هذا القدر من الطيبة والحب والحنان لِمَنْ حولك...

ولما أفاق من نوبة البكاء الأولى، ودعا لأمه بالخير سألها:

- ما معنى كلماتك؟

صمتت الحبيبة لتقول بعد أن مسحت وجهها بمنديلها الورقي:

- زوجي أصوله جنوبية... صعيدية، أحبه برغم كتمانه مشاعره التي عاينت حقيقتها منذ دقائق.

كان عليه أن يهرول ليؤكد أهمية عدم إدخال أمه ثلاجة الموتى؛ إذ إنه سيبادر بنقلها، لكن «سما» لم تقل له زوجي إلا في تلك اللحظات، برغم أنهما زوجان بالفعل، مع إيقاف التنفيذ.

قال سائق الحافلة:

- ليس لك من حق في دخول الميدان، ليست الجيزة لكل من هب ودب.

وقال سائق الشاحنة:

- هذه «بلاد» الله وليست بلادك!

وقال الركاب لسائق الحافلة:

- نريد الوصول إلى بيوتنا قبل الظلام.

وعلت أصوات التنبيه من الميدان من الخلف والأمام، قبل أن يعود صاحب الكرسي الأول المُفرد من «الحافلة» إلى كرسيه.

تذكر «خالد» «مها» ابنة عميد كلية التجارة، حيث كان يدرس منذ خمسة عشر عاما، إذ فوجئ بها قبل دخوله خيمة الامتحانات، وكانت الامتحانات في جامعته الجنوبية في خيمة، وكان آخر الطلبة الذين يدخلون إليها، لحرصه على مراجعة المادة إلى آخر الوقت، ولأنه كان يعمل إلى جوار دراسته ليعول نفسه وأمه؛ إذ كان وحيدها، وفي الجامعة في مدينة المنيا كان

يعمل نهارًا، ويتابع المحاضرات مع الزملاء ليلًا، يذهب إلى المدينة صباحًا، على بعد أربع كيلومترات من الجامعة، ويعود إلى المدينة الجامعية في قلب الحرم مساءً، يجد الزملاء يتندرون بالزميلات، وبعضهم يحادثونهن هاتفيًا، فيصمت قليلًا ثم يقول في مرارة:

- لو كانت أخت أحدنا أفكان يحدثها هكذا كما يفعل بعضنا...؟!

كان يقول الكلمات في مرارة، ففوجئ بأحد الزملاء يقول:

- «خالد» على حق... لن أتحدث مع إحداهن ثانية!

فيما طأطأ مُجري المهاتفة التليفونية منذ لحظات رأسه، وفوجئ بـ«هشام» أجرأ زملاء الغرفة التي كان تسع أربعة طلاب قائلًا:

- ذلك لأنك لم تر «مها»... أنت مشغول بعملك، ولو علم مشرف المبيت فستُطرد منه.

اختلط الأمر عليه، هل الزميل يريد أن ينبهه إلى أهمية زميلة

في الكلية، أو يهدده بالإبلاغ عنه؟ وهل بوسعه أن يرد... ليقول له:

- وهل لو علم السيد المشرف بما تفعلونه الآن عبر هواتفكم المحمولة... هل سيكافئكم؟!

لكن نفسه عافتْ الرد، إنهم يعرفون أنه واحد من اثنين من أصغر الطلبة في الجامعة كلها، وأن وفاة أبيه وهو لم يصل إلى المهد أو حتى إلى الحياة أصلًا، واستئثار أعمامه بالميراث، وحرمانه من الأرض التي كان من المفترض أن يرثها أبوه عن جده، جعله بالغ الفقر، واكتفى الأعمام بترك البيت الصغير الذي كانت أمه تقيم فيه في الصيف، تركوه لها، ولما ذهبت به رضيعًا إلى أعمامه، قالوا لها:

- سنترك له البيت الذي اشتراه أخونا... أنتِ غريبة عنا لا يمكن أن ترثينا، لديك المحاكم...

كانوا يعرفون أنها لم تكن تملك مالا للمحاكم والقضايا والمحامين والدفوع.

ذهبت إلى العمدة فقال على الفور:

- منصبي صار شرفيًا، الدنيا تغيرت، أنا مجرد إنسان مُتقاعد، خارج السلطة يعني، هؤلاء لا يتزوجون إلا من بنات العم، وبعضهم يوفقه الله معهن، وبعضهم الآخر، مثل أهل زوجك الراحل يفعل، لا رغبة فيهن، ولا محبة من الأخيرات فيهم، لكن عائلة زوجتك تحافظ على أرضها بتلك الطريقة، ثم إن منهم من يكتفي بزوجته، ومنهم من يتزوج في «وجه بحري» عليها، وكل ما يهمه منها أن يضم إرثها إلى إرثه، فيما يهم الزوجة أن تستولي على قيمة المحصول لتشتري الذهب به، وتخبئه لدى أهلها، وكم تشاجرت أسر لأجل ذلك، ومن الرجال من يعمد إلى الحرام لحل الأمر، وأبسط المشكلات التي كانت تثار بينهم أن تدخن الزوجة، بلادنا عرفت التدخين للنساء، وشكاوى الرجال، وقولهن إنهن يفعلن ذلك من كثرة ضغوط الأزواج.

حكت له أمه من بعد عن مقابلتها مع العمدة، أنها صمتت طويلًا، فقال العمدة لها:

- إن أردت جمعت عائلة زوجك ونصحتهم، لكنهم سيقولون لي هذا أمر داخلي، وإن النساء «الغريبات» لا يرثن لدينا.

قامت أمه مودعة فيما قال العمدة لها، وهي على الباب:

- هذه الكلمة سأقولها وأنت مغادرة لئلا تظني بي الظنون، إنهم يحملون الحسد في قلوبهم على أخيهم، وعليك، لأنه صالح نفسه، وتزوج التي أعفّته، وصانته في حياته، وستصونه من بعد مماته، وقديما كان في الناس الحسد يا سيدتي، كما قال الشاعر...

بدأتْ سحب المعركة تخف، وكان يتابعها مع الذِّكرى، وهو يرى سائق الحافلة يتلقى قدرًا من ضربات سائق الشاحنة، ويتعجب من العنف الشديد الذي صار حتى بين العابرين للطريق، الذين من النادر أن يرى بعضهم بعضا ثانية، ومنهم سائق الشاحنة وسائق الحافلة، وفيما كانت الحافلة تتحرك والسائق يصيح:

- تركتُه يعمل «جاكي شان» أمامكم؛ لأني حاصل على الحزام الأسود منذ كان عمري اثنتي عشرة سنة، والمدرب الأجنبي حذرني من ضرب أحد لأنه قد يموت في يدي!

والركاب يتندرون بكلمات السائق عن الحزام الأسود، والمدرب الأجنبي، وتلقي الضرب وعدم الرد... كان يتذكر أنه

ركب الحافلة عقب أذان العصر، ويوشك الظلام على الهبوط، وأنه سيأخذ نفس الطريق بعد قليل، ويتحسر على أيام كان المطرب الراحل «عبد المطلب» يسكن فيها في حي السيدة، فيما حبيبته تسكن الحسين، ولأجل نيل كل الرضا يزورها مرتين...

فيما تضاحكه النفس:

- وكأنه لم يكن له من هدف ولا عمل في الحياة إلا زيارة محبوبته! وهل كانت ترضى عنه بعد كل هذا؟!

لماذا تغضب «سماء» منه؟

عاش طفولة مليئة بالكفاح، خالية من الحنان، حتى إنه كان يتخيل أن كل حجرين يمسك بينهما أسمنت أو ما شابه فسيحلّ أحدهما من الآخر؛ ذلك لمقدار الجفاف الذي عاناه...

قالت أمه:

- كنتَ تتعلق بكل غريب، لم تكن تترك محصل الكهرباء، تدعوه إلى الدخول فيما يقرأ عداد الكهرباء خارج باب البيت، وتبكي لمغادرته، حتى إن الرجل كان يقول:

- هذا هو المنزل الوحيد الذي يبكيني المجيء إليه.

هل تعرف «سماء» أنه في حاجة ماسة إليها، وأنه تمنى لو رضيت بالإقامة معه في بيت أمه الذي ورثه عن أبيه، لكنها قالت: إن ضواحي أكتوبر في مشروع «ابن بيتك» أقرب إلى منزل الأم الذي يحتاج إعادة صيانة، ونقاشة تامة، واعتذرت:

- وصيتها على رأسي، لكنها لم توص بالإقامة في قرية الصف!

حزن من «سماء» وقتها، وهو الذي لم يحمد الله على أمر يخص وفاة أمه بمقدار وجود «سماء» بحجابها لحظة وفاتها، فلم تكن «سماء» محجبة لما عرفها، ورفضت ارتداء الحجاب لخمسة أشهر قائلة:

- لن أرتديه لأني عرفتك... بل أريد ارتداءه لأنني عرفتُ الله!

يعجبه أكثر فيها قدرتها على التعبير عن نفسها بكلمات قليلة، ومعان واضحة.

وأكثر ما جعله يتصبر عند وفاة والدته علمه أنه أمر الله، ثم وجود زوجته إلى جواره... لم تسمح لنفسها بأن تربت على كتفه، لكنها خففت عنه بالكلمات، فلماذا برغم علمها بأنهما متزوجان بالفعل تفعل فيه ما تفعله الصغيرات من حب التدلل؟! ربما لتعرف مكانتها لديه، برغم علمه بظهور «مها» في حياته من جديد، همس لنفسه، والحافلة تعبر «الطالبية» أو ما يُقارب ثلث شارع فيصل:

- في هذه الجزئية بالتحديد سر يخصني، ولا أعرفه!

كان عقله يرهقه في محاولة معرفة فيما تفكر «سماء»، وهو الذي منذ عرفها تخيل أنها صارت «الترمومتر» الخاص بحياته، وسقف آماله، وسماء أحلامه بالفعل، شعر معها بأنه كان عطِشًا يبحث عن كوب ماء، فوهبته الحياة نهرًا عذبا سائغًا بأكمله خاص به، نهر في خياله يسافر إليه ليلتقي فيه النيل المصري بالمسيسبي الأمريكي، وهما أطول أنهار العالم.

كان يعمل مقاولًا لتسليم الشقق بعد تمام تجهيزها بداية من المحارة حتى مفتاح الشقة بعد انتهاء تعليمه الجامعي، وكان «والد سماء» استبدل معاشه، وباع ذهب زوجته، وجاء بتحويشة العمر ليأخذ شقة في نهاية فيصل، وأسلمها إليه، ففوجئ صباح اليوم التالي بعد الاتفاق بثلاث فتيات يقلن له:

- نريد أن نتابعك، ولن نستطيع أن نفعل عقب انتهائك من العمل في الليل، فسنأتي عند العاشرة صباحًا!

قال دون تفكير:

- ومن أنتن؟

- «سماء»، «صفاء»، «فريدة مصطفى».

فهم أنهن بنات صاحب الشقة، لكنه قال بعد قليل:

- أرسلن أخاكن ليفعل بدلًا منكن إن كان الوالد لا يستطيع المتابعة.

أحمرت وجوههن، لا يدري حينها لماذا؟ ونظرن بعضهن إلى بعض نظرة ملؤوها الألم، وقالت «سماء» بعد قليل:

- ليس لنا أخ... فما رأيك؟

لم يكن الأب اتفق معه على متابعة، ولم يكن تعامل مع فتيات من قبل، وهو الفلاح الصعيدي، نشأ على قسوة الحياة، وبكاء أمه في الليل وهي تذكر رفض أعمامه إعطاءها ميراث أبيه، وشيء ما ترسب في أعماقه، برغمه، أن المرأة ليس لها من حق في أن تسأل الرجل، وها هن ثلاث فتيات يردن مساءلته كل صباح عما فعل في اليوم السابق، ولربما طلبن كشف حساب، مع أن الأستاذ «علاء» صديق أبيهن في مصلحة الضرائب العقارية هو الذي زكّاه له، وقال له الأخير عن الأستاذ «مصطفى» إنه مدحه

لأمانته وخوفه من الله، فما الداعي لأن يأتين لمحاسبته كل يوم؟!

قالت له نفسه:

- من بعيد يبدو أن الرجل يريد الرجوع في كلامه، ويبدو أن نظام بعض «رجال بحري» الذي لا يدريه، يقتضي الالتفاف بمثل هذه الطريقة، وإلا فلماذا لم تأت أمهن معهن؟ إن كان الأب لا يستطيع المجيء.

وفيما كان يزن الأمر في نفسه، فهي المرة الأولى التي يُفاجأ فيها بمثل هذا الموقف منذ كان يعمل في بدايات التشطيب في جامعة المنيا الجنوبية منشغلًا عن حالات الزواج العرفي التي كان يسمع بها في تلك الفترة؛ لأنه لم يكن يريد أن يعرف ما يسوؤه، برغم إدخاله في الأمر من بعد عنوة ورغمًا عنه، ومن خلافه مع زملاء الغرفة حول محادثة بعض الفتيات بخاصة مع ظهور اسم «مها»، وتهديد أحدهم بالمشرف له؛ لكيلا ينصحهم ثانية... ويومها تحجرت الدموع في عينيه، فإن الكلمات تعني عدم النصيحة المرهون لديه بعدم الإبلاغ عنه لعمله، يومها صمم أن يبيت خارج الغرفة، في بلكونة الدور

برغم الصقيع، ولم يعده إليها إلا اضطراب «هشام» قائل الجملة وهو يؤكد:

- لن أهاتفهن لأجلك، وأعتذر... ولا تسألني عما لا تعلم، فقط قم معي!

منذ عهد المنيا منذ أربعة عشر عامًا لم يشهد مثل هذا الموقف، بخاصة أنه تربى في الصف، حيث أغلب من عرف من النساء يضعن إيشاربًا أو حتى مجرد غطاء للرأس، ومنهن المسيحيات... وصغراهن الفتيات الثلاث الآن كانت مُحجبة، ثم إن جذوره الصعيدية تأبى عليه أن تحاسبه امرأة، أيا مَنْ كانت... فما الحل في هذا الموقف؟!

زحام شارع فيصل المعتاد، والحافلة العامة تحاول التقدم فيه، الشارع التجاري المشهور في محافظة الجيزة، يشهد اتجاهين قادمًا من الجيزة أو ذاهبًا إليها، مع السيارات الخاصة، والمواصلات العامة، وسيارات الأجرة، والسيارات القادمة من المحاور الجانبية المتمثلة في الشوارع الفرعية المحيطة بالشارع البالغ الطول، وهو في نفس الوقت موازٍ لشارع الهرم، وأصعب مراحل الشارع من بعد الطالبية، وقرب الإدارة التعليمية، وقبل محطة الثلاثة طوابق، المحطة الأبرز اتساعًا.

وهو ينظر جيدًا من خلال النافذة، وقد نزل الراكب الذي جلس مكانه أثناء المشاجرة في الجيزة، فاستودعه المقعد المُفرد قائلًا:

- سأعود إليه...!

الآن تركه ومضى، ليجلس «خالد» مكانه، وهو يجلس تأكد أنه ليس هناك امرأة تقف، أو رجل مسن، وهو يجلس لام نفسه

بشدة، وهو يرى الظلام يحل بالشارع، إلا من المصابيح المنتشرة على جانبيه واللمبات المعلقة في أعلى المحلات التجارية، لكن الشمس أكملت المغيب، لو أنه ركب أكثر من مواصلة، لاستطاع النزول في ميدان الجيزة، واختصر وقت المشاجرة، والجلوس مكان راكب آخر وطمأنته إلى أنه لا يخون، وسيترك المكان له حين يعود، لو أنه ركب «حافلة» أخرى تقطع شارع «الهرم»، بدلًا من شارع «فيصل» فإنه لأكثر اتساعًا، ويتيح له الوصول بسرعة أكثر إلى نهايته، ومن هناك يستطيع ركوب ميكروباص إلى «نهاية فيصل»، وبذلك كان في إمكانه توفير ساعة ونصف الساعة من كل هذا الوقت، وبالتالي الجلوس وقتًا أطول إلى «سماء».

زاد من انشغال باله ردها المختصر على رسالته على محمولها التي ذكّرها فيها بأنهما متزوجان، مع إيقاف التنفيذ، كما يقول دائما في نفسه.

لام نفسه أن لم يضحِّ ببضعة جنيهات ليوفر وقتا أطول يستمع إليها فيه، فيبدو أن لديها عتبا عليه، تنفس بعمق وهو يقول لنفسه:

- هناك أمر لا أعرفه لديها، وإن كان لدي شعور بأني السبب

فيه، يبدو أني أخطأت دون أن أدري، أو يبدو أني آلمتها دون أن أقصد، والمحمول لن يحل المشكلة... بل ربما زادها، بخاصة أن لدينا اتفاقًا ضمنيًا ألا يحدث بعضنا بعضا من خلاله أكثر من اللازم، واللازم هو الضرورة القصوى التي لا غنى عنها.

وصلت الحافلة العامة إلى محطة «الطوابق الثلاثة»، بقيت محطات قليلة إذن...

أرجع رأسه إلى الوراء، وتذكر يوم أتت بأختيها إليه تريدان مراجعة خطوات «تشطيب الشقة» يومًا بيوم كل صباح، على غير ما اتفق عليه مع أبيها، أو خلاف ما عَهِده منذ عمله في تشطيب الشقق، بل منذ كان في جامعة المنيا.

آه... الجامعة وما يحمله من ذكريات عنها، و«مها» ابنة المسؤول الكبير في الكلية آنذاك، كما كان يتردد، وأول خلاف مع أحد رفقاء غرفة المدينة الجامعية، الخلاف الذي اضطره إلى مغادرة الغرفة ومحاولة النوم في شرفة الطابق المغطاة بالنوافذ الزجاجية، لولا اعتذار الزميل له في وقت متأخر من الليل... لـ«مها» قصة في حياته، لكنها مُختلفة عن «سماء»!

كانت الفتاتان الكبيرتان غير محجبتين، «سماء» و«صفاء»، فيما كانت الصغرى «فريدة» كذلك، إلا أن ملابس الثلاثة كانت محتشمة، لمح هذا وهن مقبلات من بعيد، ولكنه لما استمع إليهن، وجد «سماء» المُتحدثة فيهن، حتى وصلت إلى القول:

- نريد نسخة من المفتاح خاصة بنا، من فضلك نجدها غدًا...

كانت أقصر منه بعض الشيء؛ لذلك احتاج الأمر حين تحدثه أن ترفع رأسها إلى أعلى قليلًا، فيما أختاها تركزان نظريهما عليها لا عليه، وكأنه لا رد فعل متوقعا منه إلا الاستجابة، وهو ما غاظه أكثر.

ابتلع ريقه، ونظر إلى الأرضية غير المستوية، وحمد الله في سره أن المبلغ الذي أعطاه له أبوهن ما يزال في جيبه، وأنه لم يتعاقد بعد على الرمل والأسمنت لزوم المحارة، وسد جزءًا من فتحات الشبابيك، الأمر لن يكلفه إلا عددًا من الاتصالات الآن بالعمال، وأصحاب الطلبيات للاعتذار عن تلقيه لزوم تشطيبات شقة «آخر فيصل»، ولن ينسى بالمرة الاعتذار للسائقين الموكل إليهم نقل مواد التشطيب.

بهدوء أخرج المبلغ المالي من جيبه، فيما أعينهن موجهة إليه، ثم مد يده بسرعة به إلى «سماء» قائلا:

- بلغي الوالد الكريم اعتذاري عن هذه المهمة.

لدهشته الشديدة لم تمد يدها، وإنما نظرت إليه في حدة وثبات نظرة ذكرته بأمه لما كان يتسرع في الرد عليها، ولا تريد تأنيبه أو لومه أو تعنيفه، وتأمل أن ترجعه النظرات إلى عقله، دون أن يكلفها شجارًا أو علو صوت في النصح، أو مغادرة المكان وتركه له.

كانت لحظات قصيرة من عمر الزمان، ولكنه تعجب من نفسه بشدة، الأمر لا يزيد لديه عن أن يكون خلافًا مع أسرة حول تشطيب شقة كان من المقرر أن يكسب منها عشرة في المائة من التكاليف، وهو مبلغ ليس هائلًا على كل حال:

- لكنك تحرص على سمعتك في السوق، والأستاذ «مصطفى»، أبي، دله عليك صديقه في العمل، وقال له في مبررات ترشيحه: إنك أمين وسريع وتلتزم في كلمتك... وأنت الآن تعود فيها!

همس لنفسه:

- وما دخلها هي بالأمر؟

إنني اتفقت مع أبيها ليس أكثر، ثم جاءتني بناته يراجعنني، ويبدو أنهن يردن كشف حساب يوميًا، هذا ما لا أرتضيه لنفسي أو مهنتي... الأمر لا يستحق مزيدًا من الكلمات أو الأخذ والرد، سأقول لمن يناقشني فيه، باختصار، لم نتفق، والرجل صاحب الشقة لن يقول للناس إنه أرسل بناته خلفي ليراقبنني، الأمر محرج، دقائق قليلة وينتهي هذا الأمر كله.

لكن يده ما تزال ممدودة لها بالمال، فيما هي تنظر إليه نفس النظرة الثابتة، العاتبة والمؤنبة، لا تكتفي بالعتاب، فتنظر إليه في تأنيب وكأنها تعرفه منذ عشر سنوات، مع أنه لم يلتق بها إلا منذ دقائق معدودة، حاول الهروب بنظره لإنهاء الموقف، فإن أشد ما يحيره فيه أنها نفس النظرة التي يعرفها منذ سنوات طويلة.

سرح بخياله بعيدًا في والده الذي افتقده، حتى إن أمه لتقول إنه ما من زائر كان يأتي بصحبة أسرته، من أهالي والده، إلا كان يسرع إلى الجلوس على ركبتيه ويقبله في شغف عجيب، ويقول:

- تتأخر علي يا أبي!

كانت سِنه إذ يفعل ذلك تقارب السنوات الست، أو أنه ظل يفعل هذا حتى بلغ ست سنوات، حتى إن أمه لتقول له إنها خافت على عقله من غرابة وعدم منطقية ما كان يفعل.

لكن الأيام جعلته يفتقد أباه الذي لم يره، ويروح يحاول أن يشتم رائحته في ملابسه التي حرصت أمه على تركها كما هي، كما تركت غرفة الراحل على حالها بعد وفاته؛ السرير، المنشفة، النعلين، الملابس على الشماعة داخلية وخارجية، المصحف إلى جوار المنضدة، علبة دواء كان يستخدمها قبل وفاته، كان يتسلل إلى الغرفة فيدخل لينام حيث كان ينام أبوه.

سأل أمه عقب غياب أبيه، وكان قلبه حينها بالغ الاخضرار، كثمرة تفاح تحاول التخلص من لونها الأزرق الأول، لتلحق باللون الأخضر المائل إلى الاصفرار كعلامة على الميل إلى النضج، كان صغيرًا كحبة فستق تحاول ثمرتها الداخلية التعبير عن نضجها، لكن فلقتي الحبة ما تزالان مغلقتين تمامًا، فلقتان يساوي وجود انفراجة بينهما نضج الحبة، وقدرة على تناولها.

كثمرة تفاح وحبة فستق سأل عن أبيه:

- ذهب إلى رحمة الله.

قالت أمه، فقال في براءة:

- ومتى يعود؟ قال أصحابي في الشارع يذهب آباؤوهم إلى العمل، ومشاوير أخرى ثم يعودون، سألتهم، فأكدوا لي ذلك!

- هو لن يعود... نحن بعد عمر أمد الله لك فيه... نحن سنذهب إليه.

لم تفضل أمه التدرج في رواية الأمر له، وهو الطفل الذي لم يصل إلى سن الست سنوات، ويذكر هذا الأمر، مع أن عمره يقارب خمسة وثلاثين عامًا، كما يذكر لون ملابسه وملابس أمه حينها، وشرخ بسيط بدأ يظهر في المنزل قبلها بأشهر، وصوت سارينة سيارة مسرعة، كان عليها المرور من أمام بيتهم لزحام الشارع الرئيسي، ونداء بائع الأشياء القديمة (الروبيكيا)، أو الأشياء التي لا استخدام لها في المنازل يستبدلها بها شيئًا من الأشياء البسيطة التي تفيد أصحابها، ولا تكلفه كثيرًا، يذكر يومها أن البائع صاح بصوته الممطوط حين قالت أمه:

- لن يعود، سنذهب نحن إليه.

عاند دمعة كانت تأخذ مجراها بالفعل بين أنفه وعينه، يشعر لسع حرقتها كلما تعرض لموقف محرج، عندما عاتبته «مها» على أنه لم يستوقفها قبل مغادرتها أرض الامتحانات في الصباح الذي دخل فيه إلى الممر المؤدي إلى الخيمة متأخرًا، فرأى فتاة محجبة بالغة الجمال تبكي قائلة:

- لن أستطيع الامتحان اليوم.

كما أنه يتذكر الدمعة الآن، و«سماء» تنظر في لوم إليه، وكان وجهها وجه أمه... قدرت الأيام أن تصبح لقمة عيشه في زحام القاهرة، فلا يستطيع اللقاء بها إلا مرة كل أسبوعين، فجمع إلى افتقاد الأب افتقاد الأم. قال لأمه يومها:

- متى نذهب إلى أبي؟!

فبكت، فيما انسحب في هدوء إلى غرفة أبيه، ينظر إلى صورته في عتاب وألم شديدين، حتى نام، ليستيقظ وهي تقول له، وبين عينيها نظرة «سماء» الآن:

- لا تنم هنا يا بني، أنت الوحيد من الأحياء الذي بقي لي،

أخوالك بلادهم عني بعيدة، وهم على مودتهم لنا لا يستطيعون الحضور إلينا إلا كل حين، أو كلما احتجنا إليهم...

يعرف الآن، تمامًا، أنه كان على أمه أن تتزوج من أحد أبناء عمومتها؛ لأن لها إرثًا أهدرته بزواجها من أبيه، وأن عليها تعديل الأمر، فالإرث الذي لم تنله من أبيه، وذهب إلى أعمامه، بالإضافة إلى الإرث الخاص بها من أبيها الذي ذهب إلى أخواله، رغما عن أمه وأمها، لكن الأخيرين اشترطوا زواجها من أحد أبنائهم بعد أبيه... نداء القلب الذي لبته وأجابته أمه، واستجابت لمحبة أبيه، الغريب عن عائلتهن المُحافظة أكثر من أغلب عائلات سوهاج، فكانت النتيجة أن ضاع حقها وحقه، بخاصة بعد أن رفضت الزواج من بعده، وعاشت على ذكرى اثني عشر عاما قضتها معه، لم تنجب إلا في العام الأخير منها، وكأن الله أراد أن يعوضها بالسعادة الطاغية التي لفت حياة ووجدان أبيه لمدة ستة أشهر؛ مدة حمل أمه به في حياة أبيه، ثم توفاه الله فجأة دن مرض أو إنذار، فغابت حياتها حتى كادت تفقد جنينها، لولا أن تمسكت بالأمل القادم من الغيب ورحمها.

كانت «سماء» تنظر إليه في ثقة مثلما كانت تنظر أمه، عكس «مها» التي كانت تبقي يوم امتحان المحاسبة وتصيح، وقد حاولت زراعة عينيها في عينيه:

- لن أحضر الامتحان.

وكأنها تقول له من طرف خفي، تدخَّلْ حتى أحضره، حجابها كان يبدو مقتحمًا على ملابس مغايرة له، ضيقة، بالإضافة إلى المساحيق التي كانت تغطي وجهها، والعطر المُنتشر قبلها.

المادة كانت صعبة على جميع الطلاب، ويومها أحب «هشام» أن يغسل وجهه صباحا، ففوجئ بصنبور من الدماء يسيل من أنفه، ومع الحرارة والسفر غطى اللون الأحمر الحوض كله، لولا تدخل الزملاء من كلية الطب في الطابق الأول من المدينة بحقنة لوقف النزيف، ولم يكن الوقت وقت امتحاناتهم بعد، هُرع لنجدة «هشام»، وآلمه أن كل زملائه يتحسبون من المادة، خاصة الذين أدمنوا اللعب طوال العام، والقلائل المعروفين بزيجاتهم العرفية، وأحيانًا الجمع بين طالبتين، وأحيانا بترك واحدة والذهاب إلى أخرى، فيما بعضهن يُدمنّ الشكوى إلى مجلس الكلية في بداية الانفصال، ثم يخبو الأمر

ويُنسَى، وإن كن يرين أن تكرار الشكوى سيصيبه من باب أن العيار الذي لا يصيبه سيسبب له «دوشة»!

إلا أن في الفتيات مَنْ كن يبكين بالدمع الغزير في طريق أحد فاقدي الشعور، وإن كن نادرات، إلا أن واحدة وأخرى فعلت، فيما كان يُطأطئ الشاب رأسه ويمر مسرعًا، وفيهن اللواتي كن يتراجعن ويعشن منكسرات حريصات على الحضور متأخرات، جالسات في نهاية القاعة، وفيهن اللواتي كن يعددن التجربة من بعده.

لكن لماذا يتذكر كل هذا الآن... كما يتذكر نظرة «سماء» الأولى إليه؟

لماذا يتذكر ما يسوءه اليوم بالتحديد؟

وهل في هذا التذكر نذير بأن أمرًا ما خطيرًا سيحدث في علاقته بـ«سماء» بعد أن صارا زوجين أمامهما عامان حتى يتحقق لهما معنى الزواج الحقيقي، بشعوره بعودة الطمأنينة إلى حياته، وذهاب الشعور بالخوف الذي طالما عانى منه بعد رحيل أبيه، وازداد بعد رحيل أمه، فور انتهاء الشقة، والتجهيزات... وهي الفترة التي كم عاش حياته يحلم بها!

الزحام يزداد في شارع فيصل، بقي ربع الساعة ويصل إلى المنطقة التي تقيم «سماء» فيها، سيتمشى إليها لمدة دقائق، ويشتري شيئًا من الطريق، كان يتمنى أن لو كان بإمكانه أن يتصل بها ليقول إن «ضوء القمر» في السماء بدأ في الظهور، ذلك لأن أنوار المحلات التجارية غابت، وبدأت الحافلة العامة تبدو مظلمة، وحركته تزداد واندفاعه، وأيضا صوت الفرامل الصادر عنه في مواجهة مسرع ظهر فجأة أمام السائق.

كان يود أن يقول لها: إن الليلة تذكِّره بليلة سيجتمعان فيها على طاعة الله، ويتمان عقد زواجهما بالزفاف، وبداية تكوين أسرة، وأنه اشتاق إلى هذه اللحظة طوال حياته.

بل إن حياته قبلها ما كانت إلا عودًا أخضر طلعت أغصانه لحظة التقى بها، وجمعت الأقدار بينهما، وإن كان لقاؤهما الأول قد شهد خلافًا في بدايته، فكم من محبة إنما جاءت بعد خلاف، فهو لا يستطيع أن يقول عداوة، ولكنه يلمح في الأفق نذر عاصفة...

غاص تفكيره أكثر في لحظة لقائهما الأولى، فلكأنما يهرب من شعور ثقيل يتسرب إلى قلبه بل روحه يخبره أن «سماء» تنتوي أمرًا مؤلمًا، لا يعرف كيف؟

ولكن قلبه يستشعر أنه أخطأ في أمر صعب، لا يريد تذكره الآن، فقط أن «مها» تخرجت من جامعة أخرى، عقب تخرجه بعامين، وسبق أن كانت معه في فرقة واحدة، وأن أباها افتتح شركة جديدة، هنا في القاهرة...

يوم لقائهما الأول، دامت نظرتها المغتاظة فيما أفاق على يده الممدودة إليها ما تزال، ووجهها البالغ الاحمرار، مال بيده إلى أختها الصغرى، أخذت المبلغ المالي في يدها مذهولة، فيما كان يخرج المفتاح باليد الأخرى، ويستدير ماضيًا نحو الباب في غضب لم يجعله وهو ينصرف ينظر خلفه، كان بركان بداخله، إذ إنه فهم الأمر على معناه الذي يحسبه حقيقيًا؛ إذ إنهن «يُخوِّنه»، ويرمينه بعدم الالتزام، وربما بما هو أكثر...

لحقه شيء من الإفاقة وهو يهم بغلق الباب وراءه، وكان باب الشقة من النوع الثقيل الذي يكفي لحماية الشقة من استيلاء

مجهولين عليها، وخاف إن هو أغلقه خلفه أن يحدث صوتًا عاليًا تبدو منه إهانة لا يقصدها، لكنه قبل أن يدع الباب جاءه صوت لا يدري لأيهن:

- لحظة من فضلك...

لم يكن يريد الوقوف، ولا الاستماع، وإنما فاجأته الكلمات، فاستدار بعد ثوان:

- لماذا تفعل كل هذا؟... أنت حتى لم تستمع إلينا، كنا نود القول لك إننا نريد أمورًا معينة في غرفتنا، وفي المطبخ، وغرفة المعيشة، ولكنك لم تسمح لنا بمجرد التحدث... لا أعرف ما معنى ما تفعله حتى؟

نطلب منك متابعة ما تنفذه ونسخة من المفتاح نسينا استخراجها قبل أن يعطيك أبي المفتاح الأصلي، فترد المقدم الخاص بالتشطيب والمفتاح الذي معك، وتغادرنا حتى دون استئذان... هل هو غرور مثلًا؟!

كل الكلمات الأولى كانت تخص مهنيته، وكان توقعها؛ لذا

لم يستغربها، لكن الكلمة التي حار فيها، وكان قد استدار فوجد المتحدثة بها كبراهن «سماء»، وكانت تقف بين الأختين، أما الكلمات التي جعلته يحار فمجرد تفسيرها ببساطة للطلب الذي ظهر غريبًا لديه.

إنهن يرين طلب متابعة ما يفعله أمرًا بسيطًا، لكن مشكلته أن ثلاث أخوات اليوم يطلبن، مجتمعات، منه أن يتابعن عمله، وهو الجديد عليه، مع اقتران الطلب بنسخة من المفتاح، هل من لبس أو خلط أو عدم فهم في الأمر؟

كلماتها عن انصرافه قبل أن يستأذن طرقت سمعه بقوة، إنها كلمات أمه بالفعل، وليست النظرة فحسب، إنها التي كانت على الدوام تقول لها إذا غضب من شيء، وكان ما يزال الأمر حتى حينها نادرًا، الغضب والخلاف مع والدته، ولكن الأخيرة دائما ما كانت تقول له:

- حتى وأنت غاضب قلبي يحبك... ولا يحب أن تتركني وتمضي دون استئذان...

قال لنفسه:

- هو مجرد تشابه في الكلمات لا أكثر...

وأكمل مسيره.

اعتذر لِمَنْ كانوا على موعد للإتيان بمواد البناء والتشطيب، لكن عقله هداه إلى جعله اعتذارًا محددًا باليوم فحسب، إذ أخبره قلبه بشدة أن للأمر بقية، وبقية قوية، وأن الأمر لا يخص عملًا يقوم به، فأخبرهم بأنه سيحدثهم عند بدء العمل، وموعد العمال الذين تفرغوا اليوم له ببدل عنه، لمن لم يحصل على عمل آخر فيه.. ونوى أن يجلس في مكان عام ليشرب الشاي... بعد معرفة «سماء» حظرت الشاي عليه، ولكنه قبل أن يفعل فوجئ برنين المحمول، وكان المتصل والد «سماء»:

- هل أخواتك ضايقنك في شيء يا بني؟

- أهلًا يا أفندم... «أخواتي»؟!

أراد القول له إنه وحيد في هذه الحياة لولا أمه، وحتى الأخيرة ليست في نطاق القاهرة القريب إليه، وأنه بلا إخوة أو أخوات، ولكنه صمت.

- بناتي «أخواتك» أستاذ «خالد»... قالت لي كبراهن «سماء» الآن: إنك تركت المال وانصرفت حتى دون مجرد السلام...

شعر بأن الأسباب التي لديه تتبخر تمامًا من ذهنه، ولفت نظره أنها لم تقل لأبيها إنه مضى دون استئذان، بل جعلتها مجرد سلام، إنها تُحسن التعبير عن نفسها، فيما لا يعرف كيف يمكنه أن يفعل، لكن الأمر الذي يُحرجه الآن هو أنه لا يعرف كيف يرد، صمت فأضاف مُحدثه:

- لعل ما آلمك أنهن «فتيات»، وأن عملك يقتضي وجود الرجال على الدوام، سامحني يا بني لم يرزقني الله الولد، ولكن كل واحدة منهن كذلك لدي، وكنتُ أود أن أجعلك «ابني» الذي لم أنجبه، ولكن يبدو أنك ترفض الأمر...

اضطربت أنفاسه، والذي يراه الآن من المُتعاملين معه من العمال والمقاولين لا يُصدق أنه الرجل الذي لا يَهزه موقف، ولا يؤثر فيه قول لأحد، إذ إنه يحرص على حقوق الجميع، وبالتالي لا يقبل كلمة من أحد، فالكل يعرف واجبه ويؤديه، والعمل يسير بأقل الكلمات، لذلك صار محبوبًا حتى من الذين

يتهمونه بما اتهمته «سماء» من «الغرور»، ولكن الرجل يقول له «يا بني» تأثر كثيرا بالكلمة، ودارت الأفكار في ذهنه في ثوان، وصمت مبتلعًا ريقه ليقول:

- العفو يا أفندم... بل إنه ليشرفني والله...

- هل أكون والدك بعد والدك يا بني؟!

صمت طويلًا وهو يتمثل غياب أبيه، ونهر ومنع أمه له لئلا يبيت في غرفته، ويتغطى بلحافه، ويرتدي بيجامته؛ لأنها لا تحب أن ترى أحدًا يستعمل أغراض الراحل الذي أحبته فوهبته عمرها كله، وخسرت لأجله الإرث، وأقامت غريبة بعيدة عن الأهل على مشارف الجيزة، فلا هي التي عاشت في سوهاج مسقط رأس آبائها وأجدادها، ولا هي بالتي عاشت في القاهرة حيث الزحام والأضواء والحياة التي لا تتوقف في المدينة التي يقارب عدد سكانها العشرين مليونًا، وتمتد على مساحة ثلاث محافظات تسكن على حدود آخرهن جنوبًا، لكن بعيدة عن وسائل الترفيه، والحياة التي لا تفتر ولا تصمت دقيقة من ليل أو نهار أو حتى ثانية، وكانت أمه تتأذى، أيضا، كما أخبرته؛ لأنها لا تحب رؤيته بملابس أبيه؛ لكي لا تتخيل

غيابه بعد غياب أبيه.

أحد الناس، ولو على سبيل المجاملة، يطلب منه أن يعتبره والده، عادوته لحظة البكاء من جديد، وهو الذي يفتقد الحضن الذي كان يبحث في الناس عن آخر بعد أبيه يصلح أن يكون أباه، حتى إنه كان يُقسم، صغيرًا على محصل الكهرباء أن يدخل البيت، فالغرفة جاهزة، ويمكنه أن يعتبر نفسه أباه، ذلك قبل أن يعرف أن للحياة معانيها، وهو الذي دفع بالمحصل إلى البكاء في المرة الأخيرة، ثم صار يُقدر الكهرباء جزافيًا ويقول:

- أدفع من جيبي ولا أمر ببيت المرحوم «المُسافر» ثانية...!

- بني هل ما زلت معي أم ماذا؟

جاءه صوت الأستاذ «مصطفى» والد البنات الثلاث على الناحية الثانية من الهاتف.

بقيت دقائق وينزل، إذ يصل إلى المحطة التي يقبع بها بيت «سماء» محطة الحافلات العامة، وشارع وحي أحبهما من قلبه، بل أحب جيرانها، وسائقي سيارات الأجرة، والمباني، وحتى النشالين في الحي، وهل يخلو منهم حي؟! لمجرد وجود «سماء» بينهم، مسح بباطن يده دمعة سالت برغمه على خده، وهمس لنفسه:

- لماذا ظهرتِ ثانية في حياتي يا «مها»؟ وكنتُ وأنا الذي ألتحق بعالم المقاولات أحاول تثبيت دعائم بيت في الخيال، وداخل القلوب، وعلى الأعمدة كان يستطيع تثبيت بيته، حتى جئتِ إلى أبواب حياتي الحقيقية غفلة فهددتها في مقتل، ألا منك للخالق، أنت وأبوك والأسرة، والمكتب، وعنوانه و...

ذهب التفكير منه إلى المساحة البعيدة المحبوبة لديه، مساحة «سماء» ووالدها والمكالمة الأولى بود بينهما:

- هل أنت على الخط يا بُني... أم غضبت مني أنا أيضًا بعد «بناتي»...؟!

«بُني» هذه المرة جعلت دمعته تشرف وتهطل من عينيه، فمال إلى زاوية من الطريق، ليعطي العابرين ظهره، ويخرج منديلًا ورقيًا، فلا يراه منهم أحد، وليداري دمعته، وأخيرا قال:

- العفو يا أفندم ... أبدًا... شرف لي كما قلت لكم... أبي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، غادر الحياة قبل ثلاثة أشهر من مجيئي إليها...

- رَحِمَهُ ٱللَّهُ يا بني... لا أريد أن أقول لك اجعلني مكانه؛ لئلا تظن أني أريد منك شيئًا...

- يا أفندم شرف لنا والله... لا تقل ذلك...

- إذن فقد حدث خلط في الفهم بينك وبين «بناتي»، جميع الذين يتعاملون معك يمدحونك، وهن أردن أن يوصينك بأشياء يحببنها في الشقة، ولا تنس أنها خلاصة حياتي وحياة أمهن، فيردنها جنة، ولم يردن إزعاجك... فقط ارتح اليوم، وشرفني غدًا، وهو يوم الجمعة مساء... ولم المساء يا بني؟ الجمعة راحتك؛ أعرف... تعال فصل في المسجد الذي إلى جوار البيت...

تردد في القبول:

- قلنا: إنه لبس وخلط، تعال سأنتظرك...

ترى هل ينتظرني «عم مصطفى»؟، كما صار اسمه فيما بعد، أم لم يعد يطيق مجرد سماع اسمي؟، وترى هل أعدت لي «سماء» طعام العشاء الليلة؟ ككل زيارة، أم أنها ستبخل علي حتى بالجبن والحلاوة الطحينية؟!

يبدو أني مخطئ بشدة، يستحق ما سيحل به بعد قليل...

هرب، كعادته، إلى حواره مع أبيها هاتفيًا، كانت المكالمة حينها قد انتهت، لتشعر المساحة الفارغة من طلب الحنان والأمن الأسري في داخله بالالتهاب، المساحة التي حرص منذ نصف عمره، من سنوات الجامعة، حتى اليوم على أن تظل فارغة، فإنه ليعرف ما جره الحب والتعلق بأمه، وما ألحقه بأبيه من ضياع إرثه ووفاته في مدينة بعيدة على بعد قرابة سبعمائة وخمسين كيلومترًا من بلده وأهله، وما نتج عن تلك العلاقة من الحب العميق بين أمه وأبيه؛ جاء هو ثمرته ليعمل في المقاولات وحيدًا بعيدًا غريقًا على أرض القاهرة المترامية الأطراف، البعيدة الشوارع، الكثيرة الشجارات، الدائمة الانفعالات...

في يوم الجمعة ذهب بنفسه إلى المسجد الملاصق للعمارة التي يقيم فيها «عم مصطفى» بنظام الإيجار الجديد، ليصنع له القدر نصيبًا في «سماء»، ولتبدأ قصته معها، وليسمع ما لم يسمعه في عمره، ولم يكن يتخيل أن يسمعه، ولم يدر بخلده ولا روحه أن يسمعه، وليعرف أنه إذا ضاقت به أرض القاهرة، فإن «سماء» هدية السماء إليه لئلا يضيق «هو» بالعاصمة...

استقبله الرجل بالترحاب في المسجد، وأجلسه إلى جواره في أحد أركانه، فما إن سلم الإمام وانتهيا من صلاة السنة، حتى كان البقال، والحلاق، وبائع الخضروات، والمهندس، والسباك، والنجار، جيران عم مصطفى وأحبابه يُسلمون، في توقير، عليه...

نظر «خالد» إليه جيدًا في الجلباب الأبيض الطويل، والشعر الشائب الذي غطى رأسه، والذقن المحلوقة بعناية إلا من جرح خفيف، والوجه الأبيض المُشرئب المائل إلى الحمرة، والجسد الطويل النحفيف، تقريبًا ملامح تناقض ملامح أبيه التي رآها في الصورة، وروتها أمه له، ولكنه شعر أن الروح منهما واحدة.

لم يفاتحه الرجل في شيء حينما استقبله، وإنما ذهبا إلى مكان

الوضوء، وحرص على أن يتوضأ معه من صنبور واحد، وأن ينظر إليه بطرف عينه وهو يتوضأ، ثم راقبه وهو يصلي السُّنة، فيما كانت شفتاه تتمتمان بالذكر.

عقب الصلاة قال له:

- تعال لتشرفني قليلًا.

توقف «خالد» أسفل العمارة مُتحيرًا، إذ إن شعورًا قويًا يراوده؛ كان يحب الهرب منه، لكنه دائم التشوق إلى أن يصل إليه، شعور بتدفق الحياة في أوردته ومسامه، تلك الحياة التي هابها مرارًا وتكرارًا بعد نجاح قصة حب دافئ بين أمه وأبيه، ولكن التبعة والفاتورة كانت وما تزال صعبة جدًا، بل قاسية شديدة على الجميع...

قال الرجل له بلطف:

- لا أعرف لماذا تعاملنا هكذا؟ ولماذا نحن دون غيرنا ممن عرفك وأشاد بانضباطك وأخلاقك؟!

حاول الإجابة فلم يدر ماذا يقول، ولم تسعفه شفتاه إلا بالقول:

- لا شيء... بل إنه ليشرفني...

فتحت الباب الأم، نسخة من أمه، وبنفس الابتسامة وتدفق الحنان، لقد اعتذر إليها مساء أمس عن التأخير، فسمع تهدج صوتها، فقال:

- والله يا أمي سأحسم عملًا وأكون لديك بإذن الله... غدا فلا تحزني، فقط سآتي بدون الغسيل بعد إذنك؛ إذ سآتي مباشرة من مشوار...

- حتى «الغسيل» تأبى أن تتعبني فيه!

كان يريد أن يقول لها كفى ما أنت فيه، ولكنه تمهل وصمت...

قالت الأم على الفور:

- أأنت أستاذ «خالد»... يا بُني قلبت لنا الأسرة بالأمس... مع أن ملامحك طيبة...أهلا وسهلا...!

تعجب قائلًا:

- أنا يا أفندم؟ معذرة...!

قالت الأم وهي تغلق الباب ناظرة في وجه زوجها بدقة:

- أنت متحدث لبق وصاحب ذوق... تبدو كلماتك...

تذكر ما حدث أمس، فصمت، فيما قال الزوج:

- دعيه يا «أم سماء» يلتقط أنفاسه من صعود السلم أولا...

بدت الشقة بسيطة من الداخل، لكن مرتبة ونظيفة، وعلى يمين الضيف زاوية كغرفة للجلوس تُستغل الردهة فيها، كما هو متبع للتغلب على ضيق المساحات في القاهرة، وأحيانا المدن الكبرى في الأقاليم، لكن لمسات من الذوق الجميل ظهرت في ألوان الحائط، مع تناسق في ألوان الأثاث، وأغطية الأنتريه، والسجاد، وقطع الأثاث الأخرى...

كان الرجل يحدثه:

- بُني أنا أنادي زوجتي أحيانا «أم سماء»... وأحيانا باسمها مباشرة؛ إذ إن بناتنا نعمة من الله...

قال «خالد» وقد بدأ يشعر بشيء من التأنيب خفي في الكلمات الأخيرة:

- بالطبع...

لكن الأستاذ «مصطفى» فاجأه بالقول لزوجته:

- هل تبقى كثير على الغذاء يا ستي؟!

- أبدا يا حاج البنات جهزنه في المطبخ...

تخيل في البداية أن الرجل سيأكل في الداخل ثم يعود إليه، ثم فهم أنه مدعو على الغداء، اعتاد «خالد» أن يدعو العمال والمقاولين في نهاية كل عمل على الغداء، لكنه لم يكن يقبل أن يدعوه أحد، فالعمل شيء والطعام آخر، هذا أول مبدأ من مبادئه، وهو ما نسيه تمامًا عندما استجاب لضرب موعد بعد صلاة الجمعة، وإنما أراحه منه أنه يستطيع الذهاب إلى الصف عقبه، ولكن الأمر فيه غداء! اضطرب قائلًا:

- اسمح لي...

قالت الأم في طيبة أقرب إلى الحزم:

- بُني... اسمح لي، إنني في سن أمك، وقد أغضبت بناتي أمس، واليوم لن تغضبني والحاج... ندعوك لعيشنا وملحنا، فتقول: اسمحا لي... هل تضمر لنا سوءًا يا بني؟! ألا تكفينا عطلة التشطيب،

ونسيتَ أن الحاج قال لك إننا سنسلم هذه الشقة آخر الشهر القادم، واليوم ثلاثة في الشهر الذي يسبقه، ولدينا نقل أثاث ومفروشات، وكنا نأمل أن تبدأ أمس، حتى إننا من تسرعنا نسينا نسخ المفتاح، فلما طلبت منك «سماء» ذلك، تركت المال والمفتاح وخرجت دون أن تسمح لها ولا لأختيها بتذكيرك... سامحك الله ...!

شعر بإحراج شديد لم يشعر به من قبل، فهو فيما يخص المواعيد والالتزامات يعد نفسه متفردًا... فكيف يلومه أحد فيهما؟!

تشوقتْ «سماء» كثيرًا إلى الانتقال من الشقة المُستأجرة على مشارف شارع «عثمان محرم» المُزدحم طوال الوقت، فيما تعرف، إذ إنها لم تخرج إليه قبيل الفجر، أو بعد التاسعة مساءً، مع أنها كم تمنت أن تشتري جريدة الصباح، الطبعة الثانية لا الأولى التي تقارب أخبار نفس اليوم، وغالبًا ما تنزل الطبعة الثانية الأسواق قبيل منتصف الليل، على الدوام كان أبواها يشددان عليها وعلى أخواتها ألا تتأخر، ولا خروج من البيت بعد التاسعة مساءً، مهما حدث، ولذلك فالمحاضرة الأسبوعية التي يتأخر المحاضر فيها عن البداية في السادسة لتمتد حتى الثامنة لا مجال لديها لحضورها؛ إذ إنها تنتهي في الثامنة، ومدة ساعة غير كفيلة بنقلها في زحام الجيزة من جامعة القاهرة إلى الطالبية.

وكان يحدث أن تنسى الأسرة شراء خبز كاف للعشاء، أو أن تُفاجئ أمها إحدى نزلات الربو، مع نفاذ الرشاش الموسع للشعب الهوائية، عندها كان يقوم أبوها في هدوء بارتداء ملابسه، دون أن

يفكر في أمر إحداهن، هي أو إحدى أختيها بالنزول بدلا منه، أو حتى اصطحابها إلى المشوار الطارئ.

لكم تمنت «سماء» وهي في المرحلة الإعدادية والثانوية، وهي تتابع غيرة الإخوة «الذكور» على أخواتهم، التي كانت تصل إلى حد الضرب، وجذب الشعر، والصوت العالي، وتدخل الأب والأم، لكم تمنت «سماء» أن يكون لها أخ تستطيع النزول معه إلى الشارع في أي لحظة، وتتفق معه فتعرف معنى الشدة والرجولة، وتختلف فتعرف معنى الحنان من مُقارب لها في السن، غير الذي اعتادته من أبيها وأمها.

وللحقيقة فإن «عم مصطفى»، كما يحلو لها أن تنادي أباها حين تحب تدليله، أو طلب شيء تشعر أنه سيعترض عليه، وست الحاجة «آمال» كما تنادي أمها حينما تريد التقرب إليها، أو توسيطها عند أبيها في أمر تراه بالغ الأهمية... حين لا تنفع معه كلمة «عم الحاج»... لم يكن أبوها أو أمها يشعرانها بأنها أو أختيها أقل من أي فتى من معارفهم، فلهن حرية الاختيار، فيما عدا أمورًا بعينها من مثل عدم الخروج والدخول في أوقات معينة، وارتداء الملابس

غير المحتشمة في الخارج أو عند وجود ضيف في الشقة، أما غير هذا فكان أبواها دائما يقولان:

- البنات مصابيح البيوت...!

لكن خالتها منذ الصغر كانت تقول لأمها:

- ربنا يرزقك «عوضهم»...!

ولم تكن «سماء» تعرف العوض من الأساس، أو أنها كلمات تطلق كناية عن الولد الذي يعوض «خلفة» البنات في المفهوم الشعبي، أما عمتها فكانت تتحدث بما هو أكثر إيلاما لأمها:

- المحاولة الرابعة أنجح بإذن الله... وإلا سأتدخل لدى أخي...!

وعقب انصرافها دائما كانت نذر المعارك القليلة تتجمع في سماء شقتهم، وتتجمع الغيوم إيذانا بحرب من العيار الثقيل:

- أختك تطلب مني أن أحاول الإنجاب رابعة، وأنت تعرف بمرضي وأني قد «أموت» فيها، وهي تهددني إن لم أفعل بالتدخل عندك، لتتزوج ثانية... هل تسمعني؟

كان والدها يلوذ بالصمت دائمًا تجاه نوبات الغضب الحادة لأمها:

- ربنا رزقك ثلاثة أقمار... هل ستلقيهم وراء ظهرك من أجل كلمات أختك؟

إن «سماء» أكبر من أختيها، لذلك تذكر هذه الكلمات جيدًا، برغم أن عمرها حينها لم يكن تجاوز السابعة، حتى وقت انتقال العمة مع زوجها للإقامة في مكان بعيد لدواعي العمل، وتذكر «سماء» أن عدم رد أبيها كان يُسعد قلب أمها، إلا أنه لطالما أحزنها وبقوة...

لو أن أباها رد، فلربما اقتنعت بقلبها الأخضر الصغير، الذي لا يحوي إلا بساتين ممتدة، وأشجارًا طويلة عالية ممتلئة بالغصون والفروع والأوراق من حب الخير للناس، وشطآنا وأودية ومزارع وقصورًا من الرغبة في الحياة في سلام، والشعور بأن جميع الذين حولها كذلك، لو أن أباها رد لاستراحت، ولكنه كل مرة كان يذهب بعينيه حتى بعيد، هل يسافر حتى أمنيات بأن يهبه الله الولد الذكر؟

لما كانت الأمور تهدأ كان أبوها يقول في ابتسام وبساطة:

- من يعرف أين الخير؟

لذلك ظل عرفًا بينها وبين أختيها ضرورة إبراز دورهن في المنزل دائمًا، حتى الشقة المُستأجرة يقمن بإعادة ترتيب ما يُعلق على الحوائط، فيضعن صور أبيهن وأمهن في حفل الزفاف على حائط في غرفة النوم الخاصة بهما، فيما يقمن باختيار ألوان لأوراق زينة أشبه بألوان الطيف السبعة في غرفة الضيوف، وينسجن بأيديهن مفارش على المقاعد والكنبة الكبيرة، ثم يأتين بأقمشة يقمن بتفصيلها خصيصًا لكي يجعلن منها عرائس ذات حجم متوسط يدعنها في غرفة الضيوف أو بغرفتي نومهن.

كانت «سماء» أسرعهن أداء وأكثرهن حَثا للأختين الأخريين على حسن إعداد هذه الأشياء وسرعتها، هذا غير تولي جميع أمور المنزل، والتفنن في إعداد الوجبات المختلفة ذات التكاليف المناسبة للوالد موظف الضرائب، صاحب الدخل المناسب، لكن مع إخراج إيجار الشقة ذات القانون الجديد المؤقت وفي نفس الوقت المرتفعة، ومصاريفها وأختيها، ومبلغ معين مدخر لشقة تمليك، فلا يبقى بعدها شيء.

وأخيرا تعلمتْ «سماء» النقش على الأواني الخزفية، من الزهرية الكبيرة الحجم المستخدمة للزهور والورد، وكانت تحرص أن تظهر للناظر طبيعية... بين الحين والآخر تشتريها من مصروفها الخاص.

كانت تكافح لتريح أمها من عناء السنوات الطويلة، وفي نفس الوقت لإشعار أبيها بأنها وأختيها لا يقصرن، بل إن لديهن أفضل مما لدى الابن الذكر، فهي تعرف أن ما تقوله العمة أمامهن قليل مما يُقال لأبيها وهما مُنفردانِ، أو من زملائه في العمل، وكانت «سماء» تتخوف من مجيء حدث طارئ لا تستطيع التصرف أمامه، تفسره بمرض مفاجئ مساء لأبيها أو أمها، وهو ما لم تضطرها الأيام إليه.

شخصية «سماء» المميزة جعلت «فريدة» الصغرى مطيعة لها أغلب الوقت، بل تتباهى بها، وبتفصيلها الملابس، ونقشها على الخزف أمام زميلاتها في المدرسة، أما «صفاء» فإنها وإن كانت تشترك مع «فريدة» في نفس الشعور، إلا أنها كانت تنظر حائرة دائما أمام ما تراه مبالغة من أختها في إثبات فائدة لثلاث بنات تخطو اثنتان منهن نحو سن النضج.

لم تكن «سماء» بالطويلة ولا القصيرة، كانت متوسطة بين هذا وذاك، تميل بشرتها إلى البياض كأمها، لكنها ورثت الوجه الأقرب إلى المثلث من أبيها، مع العينين البنيتين الحادتي النظر حين الغضب، الساهمة الناظرة في غير هذا من أحوال الحياة...

قالت بنات أعمامهن لهن على الدوام -مع غيرة لا تخفيها الكلمات- إنهن أجمل فتيات العائلة، وكأن الله أراد تعويض أبيهن عن عدم إنجابه الولد بجمالهن، وأنهن سوف يتزوجن نتيجة هذا الجمال الواضح مبكرًا.

بقدر ما أسعدتها الكلمات أحزنها أمران، أنهن يُذكرنهن بعدم وجود الأخ الذكر في حياتهن، ثم بعدم اقتناع بنات العم بجمالهن هن أنفسهن، وهي تعرف المشكلات المترتبة على عدم اعتراف الفتاة بجمالها أو إمكانياتها.

لكن «سماء» لما علمت بأمر «خالد» وأخذه الشقة الجديدة «مقاولة» يسلمها لها ولأسرتها على المفتاح، دون أن يصطحبها أبوها هي وأختيها أثناء الاتفاق، لم تكتم ضيقها عن أبيها هذه المرة:

- أوَلسنا سنقيم فيها يا «عم الحاج»؟!

- أنتن ضيوف وأمانات لدينا يا بُنيتي!

إنها المرة الأولى التي ينبهها أبوها فيها إلى معلومة غريبة كانت غائبة عنها من قبل، مع بساطتها، لا تدري كيف؟

فإن الولد أدوم بقاء في بيت الأب من الفتيات اللواتي يعتبرن ضيوفًا يمضين إلى بيت أزواجهن مسرعات، ويبقي بيت الأب أمانًا لهن في الأزمات الزوجية، وهي واثقة من سرعة زواجها، لكنها كانت تظن أن لها نصيبًا دائمًا في بيت أبيها، على عكس كلماته الواثقة الآن... ابتلعت ريقها وقالت:

- وحتى لو أننا ضيفات فيه، لكن لنا حق إبداء الرأي؟

- وهل كنت تظنين يا بنيتي، مع الاحترام، أني اصطحبكن إلى مقاول، ولو كان فتىً صاحب تعليم جامعي...

أسقط في يديها، ولم تعد تدري كيف ترد، وهي المرة الأولى التي يقول أبوها فيها أمامها أن هناك فارقًا بينها وبين الابن، وإلا فها هو ذا يذهب محددًا مواصفات الشقة التي سيقيمون فيها دون أن يصطحبها أو واحدة من أختيها، ويقول إن هذا هو الصواب.

أضاف الأب:

- نحن اتفقنا على أعمال كسوة الجدران، طبقة «مونة أسمنتية»، وعند الدهان والألوان أنقل إليه رغباتكن...!

قامت حزينة من أمامه، إذ إنه يصمم على عدم حضورها اتفاقًا، فيما قالت لها «صفاء»:

- لستِ ولدًا، ولن يجعلك تحضرين معه اتفاقًا مع رجال... انتهى الأمر، مثلما لا نجلس مع ضيوفه الرجال... عوّدي نفسك على هذا...!

قالت الأم:

- قسوت عليها يا حاج دون أن تشعر!

احتمت بغرفتها، ورفضت تناول الغداء مع الأسرة، حتى جاءها أبوها ليأخذ بيدها دون كلمات، وعلى المائدة قالت:

- غدًا أول أيام عمله... سأذهب إليه وأختاي نأخذ نسخة خاصة لنا من المفتاح، ونتابعه يوميًا...!

قال الأب:

- أخشى ألا يفهم الأمر، وهو شاب أمين مدحه الذين تعاملوا

معه بإخلاصه وأصالة معدنه، وهو ما يساوي سرعة في التسليم، وتوفيرًا للوقت والجهد مع غيره، خاصة أنني دفعت آخر إيجار لهذه الشقة اليوم لصاحبها، قال لي إنه يمكن أن يتركها لنا إلى الشهر المقبل، فرفضت، ولا أريد مشاكل مع الشاب، وتصرفكن ربما ساوى لديه عدم ثقة منا فيه...

قالت «سماء» في تصميم:

- نُفهمه... لكننا سنتابع معه...

نظر أبوها إليها وإلى أختيها، وانتظرت أن يقول إنه يمكن أن يعرفهن به عقب عودته من العمل، فلم يقلها، ولكنه غادر مائدة الطعام صامتًا.

قالت أمها فور ذهابه:

- لا تخلقي مشكلة من الفراغ...

- سأذهب يا أمي...

في عامه الدراسي الأول لفت نظر الزميلات إليه، فـ«خالد» مميز بميله إلى السمنة قليلا، مع الطول، والبشرة الأقرب إلى الشقراء، بعكس أبناء الصعيد الغالبة عليهم البشرة القمحاوية المائلة إلى شيء من السمرة، إلا أنه كان دائم الانطواء والانسحاب عنهن، كأنه يحيا في عالم بمفرده، ولم تمض أيام على بداية العام الدراسي الأول، حتى اطمأن إلى عدم وجود حضور وغياب في الجامعة كما التعليم الثانوي، فغاب وأطال الغياب، حتى ظننه انتقل إلى كلية أخرى، فحتى «السكاشن» الواجبة الحضور، لم يكن يحضرها.

وظهر فجأة يستسمح إحدى المُدرسات فرفضت، واضطر إلى الوقوف معها بعد المحاضرة، فاشترطت حضوره قبل انتهاء الفصل الدراسي الأول لتدارك ما فاته من «سكاشن»، فصار يفعل.

لكنه كان يأتي إلى المحاضرات نصف نائم، غير مرتب الملابس، ينظر إلى غير المُهتمين من الزملاء في دهشة الذي اكتشف وجود كائنات أخرى في الحياة غير التي يعرف، وتسرب

الخبر إليهن أنه يعمل لينفق على نفسه ووالدته، بل علمن من أحد الزملاء، «هشام»، المُقرب إليه بحكم إقامتهما في شرفة واحدة، أنه يريد النجاح فقط بلا تقدير، ولا استمرار في تعليم بعد حصوله على الشهادة، وبالتالي فهو لا يريد معرفة إحداهن من الأساس، إذ لا وقت لديه لإقامة ما كن يرينه علاقة بريئة في ظل أنظمة الجامعة، مع انتقادهن الذي يبتعد بنفسه عنهن.

وظل الحال على هذا النحو، ولكن الأمر لم يخل في المحاضرات التي كان يحضرها من نقاش مع الأساتذة، ظهر في البداية حييًا خجولًا، ثم ازداد في محاولة ابتكار طرق أسهل من النظريات المعهودة في الدراسة لاكتشاف حلول لتعقيدات الأرقام، بعيدًا عن مجال الآلة الحاسبة، وهو ما عدته الزميلات في البداية محاولة لإثبات الذات، إلا أن الأساتذة لما صاروا يسألون عن «خالد» حال غيابه، فهمت أغلبهن أنه برغم الخلاف مميز.

كسرت الحاجز «مها» في العام الدراسي الثالث، اقتربت منه ذات مرة لتقول بصوت اعتبرته أقرب الزميلات إليها كالفحيح:

- ما لك متعب، ومظهرك غير متناسق ونائم؟

قال على الفور:

- هل تعرفينني؟

- أولسنا في دفعة واحدة؟!

هز رأسه في عدم اقتناع ومضى، لتضاحك هي أقرب الزميلات منها في سخرية، وتروي ما جرى للدفعة كلها...

نظرت «مها» إليه مليًا ثم قالت، وقد أمسكت بخصلة شعر بدت من أسفل الإيشارب الذي لا يغطي كثيرا من رأسها:

- وحياة هذا لن أتركك... ولأكن ذات شأن في حياتك لا تحلم به، ولا يخطر لك على بال...

أبوها يُقال إنه مسؤول كبير في الكلية يخشاه الجميع، لذلك يحرصون على ألا يمتد حجم المشاكل في هذه الدفعة بأية حال، برغم تأخرها عن دفعتها الأصلية، فيما هي بطولها وملابسها البراقة التي تجذب الشباب، بخاصة الريفيين إليها، مشهورة بترك المحاضرات، والتجول حول الكلية أو البقاء في الكافيتريا، وأحيانا الانتقال من كلية إلى أخرى، يرحب الحرس بها لمعرفتهم بنفوذ

أبيها، وتدور حولها الهمسات والأقاويل هنا وهناك...

كان الجوع قد بلغ بـ«خالد» مداه في ذلك اليوم، فقرر الذهاب إلى الكافيتريا، وانتقاء أرخص طعام متاح، وفيما يفعل رآها تقرأ قائمة الطعام، وتنظر إلى البائع نظرات لها معنى، وكادت تقول إنها تعزمه، لولا ضيقها بموقفه الأخير أمام الزميلات، واعترفت بينها وبين نفسها أنه لا يؤلمها أن يتناول الغداء معها، ونظرت إليه من الخلف لتقول لنفسها:

- هذا جديد لا يعرف فتيات؛ «خام» يعني! إلا أنه خالي البال يرفض بسهولة مجرد التعارف وأمره ليس سهلًا...

تابعته وهو يطلب أرخص «سندويتش»، ويأخذ ركنا ليلتهمه في سرعة، ويغادر غير مهتم بها، لتهز رأسها في عدم اقتناع، وتصمم على أمر.

قال له «هشام »مساء:

- احذر «مها» فقد أسأت إليها اليوم...

- هل فعلتُ؟!

- وهل قولك لها هل تعرفينني قليل؟... تقول عنك: كأنكما التقيتما على محطة سكك حديد ولستما زميلين في دفعة واحدة...!

- أنت تعرف أنني لا أداوم على الحضور من الأساس... أهي معنا منذ الصف الأول؟

- بل راسبة، يا سيدي، من الدفعة الماضية... ثم كيف تتحدث معها بهذه الطريقة؟ ألا تخشى أباها؟

- وإذا كان أبوها يُخشى فلماذا رسبت إذًا؟

- ضعه في بالك فحسب...!

- لا مجال في بالي للأمر يا «هشام»، وكُف عن الحكي عني للزميلات...

- ماذا قالت لك؟ ولماذا رددت عليها بهذه الطريقة...

انسحب «خالد».

مساء قادته قدماه إلى سينما «بالاس» أفضل دور العرض السينمائي في المدينة، هناك فيلم جديد هو آخر أفلام ممثلة معروفة

عاشت حياتها تؤدي أدوارًا محترمة، ومع عدم محبته لدخول دور السينما، إلا أنه في يوم إجازته الفريد من العمل والجامعة أراد التغيير.

وعند الباب وجد «مها» مع أخيها في انتظار دورهما في الدخول.

تقع سينما «بالاس» في منتصف مدينة المنيا تقريبًا، عند تقاطع شارع الحسيني مع شارع المحطة، أما شارع الحسيني، فلكأنه قطعة مصغرة من القاهرة، كان معروفًا في القرن السابع عشر كأهم شارع تجاري في المدينة، يربط أجزاءها الجنوبية بالشمالية، ولكن الإنجليز أعادوا تهذيبه وشقه وإبعاد التوءات وزيادات البيوت عنه، وهو مُزدحم طوال فترة الدراسة الجامعية؛ يحرص الطلاب على ارتياده، ويوازيه شرقًا كورنيش النيل بفارق يجعله وكأنه طابقان: بعيد عال عن الأرض للسيارات يمر به البشر والطلاب، وسفلي يهبط إليه بسلم بقرب النهر للصيادين وراغبي العزلة.

ومن الناحية الجنوبية تحد شارع الحسيني محطة السكك الحديدية الرئيسية، وفي نسختها القديمة تم تصوير فيلم «زوجة

رجل مهم» فيها، بالإضافة إلى أفلام أخرى قديمة.

وبقرب السينما محلات شهيرة للأطعمة الشعبية من مثل «الدمياطي» و«الإسكندراني» مع محلات مخصصة لبيع المُحمصات، بخاصة «مُحمصات بالاس» المُواجهه للسينما مباشرة، والتي لا تخلو من عمليات تحميص طوال الوقت، ولا من زبائن تراهم، وغير بعيد محل «البرنس»، وهو يجمع اللحوم إلى جوار الأطعمة الشعبية، وخلف الدار يوجد الحلاق القديم الأشهر بجملته المحببة إلى النفس، «عم نسيم» الذي كان يجلس بين يديه لحلاقة رأسه كلما وجد إلى «هناك» طريقًا، إذ إن محله كان بالقرب من مجال عمله بالمقاولات، ودائمًا ما كان الرجل يفتتح عمله بالقول:

- مرحبًا يا سادة يا أحلى من السكر وزيادة...!

مستغلًا المعنى المزدوج لكلمة «سادة» التي هي جمع سيد، وهو اللقب المعتمد للمواطن في مصر منذ يوليو/ تموز ١٩٥٢م، والمعنى الدارج لكلمة «سادة» من عدم التحلية بالسكر.

أمام الحلاق مكتب البريد، الذي كم أرسل منه الخطابات إلى

أمه بالتحويلات المالية، وخلفه محل الهدايا الذي كم أتى لها منه بغطاءات الرأس، وخلفه مبنى السنترال وقد أغناه الهاتف المحمول عن كثرة الانتظار فيه.

لما وجد «مها» مع شاب قريب الشبه بها، لكن يبدو أنه أصغر منها، تضايق من نفسه، أهي تصطحب أخاها إلى السينما؟ نظر إليها قليلًا، ثم استدار ممزقًا التذكرة ماضيًا إلى «عم نسيم» والسكر بزيادة، فيما كانت عيناها تبرقان في غضب مكتوم.

أحيانًا تجمع الحياة عليه، كغيره من الناس مناسبات تبدو عفوية لتقربه من معان، عبر الالتقاء بالبعض أو الابتعاد عن آخرين!

الزملاء لديها على نوعين: سهل الإيقاع به فيما يظن أنه أُوقع بها، وهؤلاء تختار منهم بعناية لفترة محدودة، كما تختار الأصباغ التي تغطي وجهها وتداري على رسوبها أربع سنوات في مراحل التعليم المختلفة، أو كالإيشارب الذي تضعه على رأسها وتقول إنه حجاب، وهو يتغير بحسب لون الملابس الضيقة الجاذبة للنظر. أما النوع الثاني فهو «الخام»، أو المُتعفف برأي الزميلات الطيبات كما تسميهن «مها» أحيانًا، وهؤلاء لا فائدة من ورائهم كما يحلو

لها أن ترفع صوتها في أثناء مواجهتها أحدهم قائلة:

- خام، يا أفندم، كالبترول الطالع من باطن الأرض يحتاج مصانع تكرير وإعادة إنتاج ومَنْ لديها وقت؟ وراءنا محاضرات وأساتذة!

ثم تتضاحك مع زميلة مُقاربة لها في الطباع قائلة:

- ورسوب متكرر أحيانًا، فالعمر طويل والقلب (أزرق)!

لكنه ليس من هؤلاء، ولا من هؤلاء، نظراته المترقبة في وجوه الزميلات، جلوسه غير قريب وغير بعيد، التفاتة وجهه الدقيقة الخفية كلما مزح معيد شاب أو أستاذ بذكر جزء من أغنية كسرًا لجو المحاضرة خاصة الطويل منها، الكتب الرومانسية التي يستعيرها من المكتبة ويجلس بين المحاضرات أيام يضطر إلى الحضور للقراءة فيها، كله يتعارض مع لون الملابس القاتم، خاصة الأسود والبني اللذين يميل إليهما، ثم إن قلبها يحدثها أن هناك أملا فيه، وأنه (ييجي منه) بحسب تعريفها لأمثاله من «المذبذبين» بين هذا وذاك من نادر الزملاء، كما تُسميهم.

في الصباح التالي لـ«يوم السينما» يوم بدأ استهدافه رسميًا لديها، خلت بـ«هشام» قائلة:

- أنت ستتركني، رغم ما كان، أليس كذلك؟!

قال لها بعد تردد:

- وهل أستطيع؟

فقالت بخبث:

- لا تتذاكَ عليّ... ستتركني... لكنك خائف من فضيحة هنا تجعلك لا تستطيع الخطو نحو مدرج أو حضور امتحان... وتصل إلى الحرس مشفوعة بتوصية من أبي أنك «عاكستني»...

نظر إليها في ضيق حقيقي وقال:

- لا... لا أريد تركك، ولو أردت إلى المأذون الآن...

قالت بنجاح وظفر الذي حارب حتى وصل إلى ما يريده:

- بل إنني ...!

ثم التفتت تبحث عنه... لم يجئ «خالد» بعد، وربما لن يجئ،

لكن الزميلات والزملاء في المدرج سمعوا صوتها العالي، وتوقعوا مشاجرة ملتهبة بينهما، فقالت في مداورة ولؤم:

- الأجواء معبأة بالشر... ومهيأة تمامًا للنيل منك، ومسح أرض الكلية بـ...، وأنت تعرف أنني لست بالتي يُلعب بها...!

كان صوتها قد عاد إلى الارتفاع، فيما زملاء يتهيأون للتسجيل عبر المحمول... فقال «هشام» بصبر نافذ:

- وماذا ستكسبين من فضيحة مثلي وهو الذي لم يتعد وهناك...

قالت في كبرياء مجروح:

- أنت تجاوزتَ حدودك معي، ولدي ما يثبت، ولكني لن أفضحك، تعرف لماذا؟

فرح بخفوت صوتها، وقال في طرب الذي وجد قشة يتعلق بها في البحر، وإن كان فهم أنها تتلاعب به:

- لأنني مللتُك... ولا أريدك... ولكنك ستجيء لي بالمأذون في غيرك...

صاح مذهولًا غير مُصدق لما تحتال للوصول إليه «مها»، وعبره هو:

- قولي لي فقط مَنْ؟ أموت وأعرف الذي تبيعينني لأجله!

- لا تتخابث نحن ملَّلنا بعضينا... ولكني أمسكتُ بك من مقتل... وستطيع أوامري...

كان الحزن قد بدا على أشرار الزملاء لخفوت صوتهما في نهاية المدرج من جديد، فيما حمدت الله الفتيات من نجاتهن من مهاترة كانت ستجر عليهن تعليقات غير مناسبة لمجرد وجود «مها» بينهن!

أمام تدفق كلمات الحاج «مصطفى» بوجوب تناوله الغداء معهم، وتدخل زوجته في الضغط عليه، لم يجد «خالد» سوى أن يصمت متذكرًا حرصه على عدم المساس بمواعيده واتفاقاته، وأسعفته اتفاقاته الأخيرة ليقول فيما هو في طريقه إلى ركن في المطبخ عليه منضدة بمفرش زاه مرسومة عليه صور لورد وأزهار، وفيما تلملم السيدة «آمال» المفرش الخفيف المصنوع من نوع فاخر من الأقمشة، ناقلة الأطباق ذات الرائحة الشهية من فوق الرخامة الطويلة المجاورة إلى الموقد المتعدد العيون (البوتجاز) كان «خالد» يقول:

- معذرة أستاذ «مصطفى»، لكننا لم نتفق على متابعة نجلاتك الفضليات للعمل قبل البداية، والناس عند شروطهم... هكذا اعتدتُ في عملي...

قال مُحدثه بسرعة:

- نعم لم نتفق... وإنني معك في رفض حضورهن إليك... لكن...

أكملت زوجه:

- اعتبرهن أخواتك، وهن فرحات بالشقة الجديدة...

فيما كانوا يضحكون علامة على الاتفاق أخيرًا، كان صوتهم يصل إلى مسامع «سماء» دون أن تتعمد هذا، فباب غرفتها مفتوح وباب المطبخ كذلك، وفيما كانت مشغولة بلوحة أمامها، كانت تتساءل عن إصرارها على الاستمرار في متابعة العمل في الشقة...

هبط «خالد» من الحافلة العامة في طريقه إلى شقة آخر فيصل المؤقتة التي أكمل تشطيبها بالفعل، كانت الخيوط المتشابكة تعصف بذهنه فيما هو يعطي بائع الفاكهة حسابه، يتعمد شراء شيء يدخل به على الأسرة، ويغامر فيركب الحافلة ليصل إليهم ليوفر هذه الجنيهات، ولو اشترى أرخص أنواع الفواكه، ولكن قلبه يحدثه بمشكلة عارمة هذه المرة، فزوجته مع إيقاف التنفيذ وحبيبته ليست من النوع الذي يصمت ويستكين لتمرير العواصف، بل إنها من النوع الذي يحب التصدي لها وليحدث ما يحدث... واصل تذكر الزيارة الأولى...

شعر، يوم الزيارة الأولى، بالألم المُضاعف لمّا قارب على

الانتهاء من الغداء، وهاتفه المحمول يرن بالنغمة المميزة التي جعلها لأمه (ست الحبايب يا حبيبة)، كما يسمي أغنية الراحلة «فايزة أحمد»... ارتبك، ونظر «الحاج مصطفى» إلى زوجته نظرة إجلال، فيما «خالد» يستأذن في الرد:

- نعم بخير... ماذا... لكنني تأخرتُ يا أمي... تفضلي أنت... وأتعشى معك، بإذن الله ... «أخذك على خاطركِ» يؤلمني... سأتصل لاحقًا... حاضر... بإذن الله ... لن أتاخر.

وضع اللقمة وتوقف عن المضغ، وترقرقتْ قطرة من الدمع في عينه، فهي إحدى المرات النادرة التي تلومه فيها أمه بعد أن وعى وتنبه إلى الحياة، فقد فهمت أنه سيتناول طعام الغذاء معها، وغاب عنه فهمها هذا لما عزمه «الحاج مصطفى»، وها هي تقول له:

- لو أني غالية عليك لما تركتني أطهو الطعام فيما أنت لم تنتقل من القاهرة الكبيرة أصلًا؟

هكذا تحيره الأيام دائمًا، فيما هو يحاول إرضاء أناس والأخذ بأيديهم، وبين معاتبة أعزاء على القلب، وهي ليست المرة الأولى

التي يجد نفسه فيها في موقف يُلام فيه بهذه الطريقة المُرّة، وليسأل نفسه عن «مها» وما تسببت له فيه من آلام دون أن يسبب لها ضررًا...

سأله «الحاج مصطفى»:

- أهي والدتك يا بني؟

- نعم يا أفندم.

- تلومك لأنك لم تتغد معها؟

- من أسف...

- أهي ليست في القاهرة؟

- قريبة جدًا منها... ومن القلب...

مصمصتْ السيدة إلهام شفتيها في إكبار وقالت:

- أوعدتَها بالغداء معها؟!

- هي فهمت هذا ولم أقصده...

- الأمر سهل دقائق وسيوصلك الحاج بسيارته... متوسطة

لكنها تقضي المشاوير و«تمشي الحال».

- ولكني سأزعجه... والرحلة إلى الصف ربما تبدو بعيدة عليك؟

- نحن مسئولان عن تأخيرك؛ لذا سنعوض هذا بعد دقائق...

ابتسم الحاج وقال:

- وأنتِ يجب أن تشاركينا الرحلة أيضًا...

فقالت زوجته:

- على الرحب والسعة.

دقائق وكان الجمع في طريقه إلى باب الخروج مُرتحلين إلى الصف، فما راع «خالدًا» ولا فاجأه إلا ظهور «سماء»، وقد كاد أن يتناساها في زحام مشاغل يوم الجمعة الأول الذي زارهم فيه في بيتهم، كانت في ملابسها المحتشمة الطويلة لكن بلا غطاء للرأس كعادتها، بدت حازمة وهي تقول له:

- سأتابع تشطيب الشقة معك وأختاي...

وفيما كان ينظر إلى الأرض مجددًا، فاهمًا ومتابعًا ومتسائلًا عن أي نوع جاد من الفتيات هي، لا تحيد عن رأيها، ولا تميل أمام العواصف مهما حدث، وهو الذي رفض تنفيذ الاتفاق أمس الأول من أجل هذه الكلمات، وتأخر عن والدته لأجل الرجوع وتنفيذ الاتفاق، ثم ها هي تقول له إنها عند كلماتها، وكأن قبوله مشروط بتلبية الشرط...

شعر بأن القلب منه قد غاص في صدره، حتى لكأنه يكاد يقع في قدميه، إذ إنه لا يستطيع مجرد الرد عليها، بالنفي أو الإيجاب، وقد كان قلبه في يمينه لما أعطاها المفتاح ومضى عنها في اللقاء الأول، وها هو المفتاح معه وتأخر عن موعد أمه ولا يستطيع الاعتراض على كلماتها، وهو الذي أعيا «مها» الوصول إلى حل معه، حتى وسطت ضعاف النفوس من الزملاء وأحد صغار المعيدين، وإذ يقول له أحد كبار الأساتذة سنًا لما انتشر عبق مطاردات «مها» له ورفضه لقاءها:

- ستقف أمام فتاة غير هذه تنسيك جنوبيتك الحميمة إلى نفسك وصعيديتك هذه... وتجعلك تقبل من الكلمات ما لم

تقبله من «مها»، أنت يا بني لست جاهلًا بالمشاعر، حتى أخالك تسمع أغاني مثلنا لـ«أم كلثوم» وغيرها، فمزاجك من الجيل القديم من أمثالنا، ولكنك تغيظ فتيات الدفعة بالانزواء عنهن، ذلك لأنك تخاف الوقوع في غرام إحداهن فتترك الدنيا من أجلها، وتقبع أو ترتكن أسفل قدميها...!

وها هو ذا للمرة الأولى في حياته أمام فتاة يكاد يهز رأسه في طرب من كلماتها، رغم معاندتها له... لكنه يصمت!

- لماذا تركتَ «مها» وأخاها أمام سينما «بالاس» ومزقت تذكرتك أمامهما ومضيتَ؟

- وكيف وصل الأمر إليك؟

جذبه «هشام» من معصمه فور رؤيته له، وبدا على رفيق الشرفة من شرف المدينة الجامعية، الذي دائمًا ما يأسره بمسارعته إلى العمل مكانه، جمع بقايا الطعام، أحيانًا تنظيف المكان، بل تغيير الحديث مع آخرين كلما تمادى ووصل إلى مواضيع أو نقاط لا يحبها «خالد»...

وفي كثير من المرات كان يمنع زملاءه من الدخول عليه أثناء استذكاره، في شرفة مفروشة تسع اثنين، وكانا فيها معًا، كانت مساحتها تسمح بسريرين مفردين، ومع ضيق الأماكن استخدمت الإدارة الشرفات، بالإضافة إلى الغُرف، بعد إغلاقها بنوافذ زجاجية محكمة وستائر.

وكانت الشرفة ملاذ «خالد» حينما كان ينوي الاستذكار بعد

قضائه شهورًا في العمل والبعد عن الكتب والمذكرات، وكان خروج «هشام» الكثير وعلامات الاستفهام المثارة حول علاقاته بالزميلات تقلق «خالدًا»، رغم استطاعته بكثرة غياب «هشام» تعويض ما فاته في هدوء، إلا أنه من ناحية أخرى كان يقلق عليه، وعلى ما يُمكن أن يسببه لنفسه من مشكلات في هذه السن المبكرة، خاصة أنه يبدو من أسرة مهذبة، لكنه يُفضل الابتعاد عنها، وعن نصائحها...

قال «هشام»، في اندفاع، وقد أجلس «خالدًا» على كرسيه، وأمام منضدته الخاصة بالاستذكار:

- كادت تتسبب في فضيحة لي...

- من هي؟

- «مها».

- وما حدود علاقتك بها حتى تلوح بفضيحة لك أمام الزملاء والزميلات كما سمعتُ في المدرج الرئيسي؟

- صدّق هي ليست كما يتم تناقل الكلمات... هي غير

هذا... وهل مثلي أهل للظنون؟...

- أصدقك، ولكنك لا تفسر لي ما يحدث...

- دعنا من هذا... هي تقول لك إنها على استعداد لبداية صفحة جديدة معك...

- صفحة ماذا؟ وهل كانت هناك قديمة من الأساس؟

- لا تأخذ الكلمات بحساسية...!

- فقط ننهي الأمر من فضلك... لا تنقل لي عنها شيئًا، ومع محبتي الخير لك أرجو أن تكون في عافية وتستطيع معاملتها في حدود الزمالة الدراسية...

علا صوت «خالد» دون أن يدري، مما اضطر «هشام» للهرولة من أمامه.

لام «خالد» نفسه كثيرًا، إنه ليصرخ فيه، فيما هي تصرخ فيه، سيتحين الفرصة لتطييب خاطره، خاصة أنه يعرف أنه يذهب إلى غرفة «محمد فهمي» الصديق بالدفعة المتقدمة التي رسبت فيها «مها»، فجاءت إليهم...

دخل «خالد» عليهم بالغرفة رقم (٤١٨) فصمتوا، فيما راح يُراقب الغرفة البالغة الترتيب والنظافة، ووجه «فهمي» المتفهم دائمًا، بادره بالقول:

- «خالد» لا أدري ما الذي ساق «مها» في طريقك؟ ومهما اتفقنا أو اختلفنا مع «هشام» في طريقة معاملته لها، إلا أن الأمر يخصه، ويكفينا أنه قطع هذه المعاملة معها ومع غيرها، ولكنها ما وضعت زميلًا في ذهنها وتركته، وأنت، فيما أعرف أول الذين استعصوا عليها، لذلك أخاف عليك، مطلوب منك الآن بما لا يخالف مبادئك أن تُلين الأمور معها...

- و«هشام»...؟

- اتفقنا على انسحابه من الأمر في جميع أبعاده... حتى فيما يخصك...

بعد يومين كان موعد «السكشن» الذي يحرص «خالد» على حضوره، ويُفرغ نفسه في ذلك الصباح له، فور انتهائه وجد المعيد المدرس أمام باب القاعة مع «مها»، اقترب في هدوء ملقيًا التحية،

رد الأول فيما شمختْ برأسها:

- أعرفك بـ«خالد» آنسة «مها»... زميل الفرقة... آنسة «مها» انضمت إلى السكشن منذ اليوم مخالفة الترتيب الأبجدي بناء على رغبتها، وأريد أن تكون معاملتنا لها، جميعًا، جيدة...

كان «خالد» يستشيط غيظًا في نفسه وهو يسمع الكلمات، تخطت الترتيب الأبجدي القاسي الذي لا يتم تخطيه بسهولة، وأتت بالمعيد إليه، وفهم من كلمات ونظرات الرجل، الذي يبدو أنه يتصرف بطيبة وسلامة نفس، أن هناك ما هو أكثر...

فيما كانت تنظر إليه في ترقب، كان يفكر في مغادرتهما بعد الاستئذان، لكنه فكر في كلمات« فهمي» في الأمس:

ما استعصى عليها زميل قبلك، وأخشى تطور الأمور!

لزم مكانه، فيما نظر المعيد إليه نظرة ذات معنىً، وكان أول ما فيها لا تتخل عن مبادئك ولا تحزنها، وهو ما قاله مباشرة قبل انسحابه:

- وازن الأمور يا «خالد»، ولن تحتاج وصية من مثلي،

وإنني لأعرف أنك رجل واجهت الحياة مبكرًا... فلن تعييك «زميلتك» هذه!

رنت كلمة «زميلتك» في أذنيه، فهز رأسه في هدوء كعادته كلما عمل في ذهنه أمر...

نظر إليها في غيظ فور انسحاب المعيد، فقالت في اندفاع:

- لا أدري ما بك؟!

فقال في هدوء شديد:

- خيرًا؟!

- نحن زميلان في فرقة واحدة... أليس كذلك؟

- بلى... بالتأكيد...

- فلماذا تحرص على الابتعاد عن جميع زميلاتك... وبخاصة عني...

قلّب بصره في الردهة التي تخص المعيدين وقاعات (السكاشن) وغُرف الأساتذة، وصاحت به نفسه:

- إلى كم تضطرنا الحياة إلى الصبر على أناس لا نريد معرفتهم من الأساس فضلًا عن التجاوب معهم؟ وكيف أفهمها أني لا أطيق مجرد الوقوف معها؟!

حانت منه التفاتة عابرة إلى وجهها، فوجد معاني التصميم حاضرة هناك، وتذكر برغمه كلمات «فهمي» التي أسر له بها عند الباب:

- إن كنت لابد ستتعامل معها، فلماذا لا تكون نيتك «محاولة» إصلاحها؟!

اقترب من الشقة حيث «سماء» بعد رحلة معاناة في الحافلة من «مدينة نصر» حتى «آخر فيصل»، لام فيها المغني الراحل الذي كان يصدح مرددًا في أذنيه صباحًا، حينما كان طفلًا:

- «ساكن في حي السيدة وحبيبي ساكن في الحسين... وعشان أنول كل الرضا يوماتي أروحله مرتين! ».

كان يشتكي ذات مرة من بعد المكان بين الحيين اللذين يقيمان فيه، ففاجأته «سماء» قائلة:

- هل كنتَ تريدني أن أقيم في «الحي السابع» حيث سكنك (العزابي)؟

ما رأيك في الشاعر الشعبي الذي كان يزور خطيبته مرتين في اليوم لكي ينال الرضا، وأنت تشتكي بعد المكان وأنت تزورنا مرة في الأسبوع؟

- حينها لم تكن هناك أزمات سكن ولا مواصلات، الراحل

«محمد عبد المطلب» غنى الأغنية حينما كانت الحياة بالغة الرخص.

- ولكن هناك أناسا (غاليين) ينبغي التعب من أجل مجرد الوصول إليهم...

لم يستطع القول إنه إنما يستعجل يومًا يجمعهما معًا، وإنه طوال حياته، وحرمانه من أبيه إنما كان يتمنى يومًا تكون له أسرة خاصة، بيت يسوده الود والتفاهم وفيض المحبة مثلما كانت تسود بيت أبيه أجواء من تغريد الحمام الذي كانت تربيه أمه فوق السطح، وكثيرًا ما كان يزور العش الذي تركته لهم في المطبخ، كان يتمنى أن يطول عهد محبته فلا يعجل بفنائه موت أحدهما، وألا يكون الرحيل فاتحة لمشكلات مع أعمام وأخوال تخص الميراث، لذلك يجتهد في عمله ليستطيع تأمين حياة كريمة -أَمْرها بيد الله- لـ«سماء» ولأبنائهما من بعد.

كان يود القول بأن ما في نفسه أكثر بمراحل مما لدى «عبد المطلب» أو غيره، مهما قال الشعراء وأعادوا وزادوا، فإنه ليحسب أن آلامه ومعاناته بعد غياب والده لا تضاهيها آلام ومعاناة،

كان يشتاق رجلًا يميل إلى كتفه فيشكو له متاعبَ لا يرويها الفتيان في سنه إلا إلى الرجال، واستكثر على نفسه أن يستمع إليها من زملاء في المدرسة الابتدائية أخذوها من أطفال في الشوارع، فيما لم يتجرأ جيله على النطق بها إلى الأساتذة في المدارس، وكان يذوب خجلًا إذ يخفي ملابسه عن أمه، فتبحث عنها ثم تغسلها في صمت، وفي عينيها نظرة لوم صامتة.

كم عاهد نفسه في الليالي الطويلة في فصل الشتاء، إذ كانت أمه تنام وتتركه مع الكتب والأوراق والأقلام يحفظ المواد بعد أن عجز عن فهمها، مثلما عجز عن إيجاد أنيس وسمير وظلٍّ لأب أو أخ أو عم أو خال، يروي له عن متاعب خاصة ويستمع منه إلى الجواب.

كان وحيد والديه، ورحل القبطان رب الأسرة ملبيًا نداء ربه، ليتركه مع أمه وبقية العائلة، الذين راعوا لأشهر قليلة حرمة الموت، وأنه قد يزور باب أيّ منهم، إلا أنهم لم يدوموا على الأمر، وتركوه لحيرته تأكل قلبه، وتضطر روحه إلى انتظار الأمل، في أحد الأعياد قالت له عمته «بسمة» الغريب طبعها عن العائلة، لكنها في النهاية ليست مثل أبيه «المُسافر» الذي قال عنه جده:

- لم أجد له اسمًا إلا ذلك... لم يخطر ببالي إلا ذاك!

وجاء أبوه مُسافرًا... كما أراد له جده تمامًا...

وقالت عمته بعد وفاته بسنوات قليلة في عيد نادر جاءت فيه إلى الصف:

- بُني، في المنام زارني أبوك وأمرني بزيارتك، كما كان يقول لي وهو شاب قبل زواجه من أمك... سامحهما الله...

طلبت الاختلاء به، وأبعدته عن أمه وبكت وهي تقول:

- أنت ترى له صورًا، وقد كان زينة شباب العائلة وبنات العم والخالة القريبات والحاضرات يشتهين نظرة منه، ورغم هذا جاء بمصطلحنا الصعيدي كشجرة اللباب التي مدت فرعها إلى الخارج، لما اختار والدتك من عائلة أخرى نراها أقل مكانة، وللإرث لدينا مكان كبير، ولم تكن أمك أجمل بنات عائلتها أو عائلتنا حتى ظننا أن سحرًا ألم به، وحاولنا عرضه على أطباء ومختصين في علاج السحر، فرفض وقال في شموخ: «إنما أحببتُها وأريد الزواج منها ...لا أريد إلا ما يرضي الله، فلا تقفوا أمامي»...

هدده الأب والجد، وكانا يعيشان بالحرمان حتى من معرفة أخبارنا، فأخذ ما استطاع من حقه وسافر بها إلى هنا...

وأضافت بعدما أمسكت دموعها، وقفص طير مملوء بما لذ وطاب من الطيور تركته تحت قدميها، وسيارة زوجها في انتظارها في الخارج، وقد رفض مجرد الدخول وسلم من على الباب، وذهب إلى المسجد ليغسل وجهه، لتقول:

- أنا لن أعوضكَ مهما فعلتُ عما فقدتَ... أعرف، وتقصيري كبير بين يدي ربي، ولكن أباك جاءني منامًا، وقال لي إنك في عام فاصل من تعليمك بعده ربما تلتحق بالجامعة، إن نجحت في كبح جماح ألمك وأحزانك، وإنني هنا رهن إشارة أخي، وأكفر عن تقصيري الماضي والقادم في حقك، عطلتُ زوجي وحياتي في العيد وجئتُ إليك، كان أبوك فارسًا وكان رجلًا وكان خيالًا يعرف كيف يقود الخيل الجامحة، ولكن قلبه جمح به إلى هنا، ولله في خلقه شئون لا نملك أمامها إلا التسليم، عاش بقية عمره يتمنى القرب من فرس كانت له، لم يركب ظهرها أحد بعده، وزيارة إلى بيت أبيه، ودار جده وليّ الله الكبير، لكن مع

عدم منع أحد له كان عقله يرفض أن يزورنا... ربما لأنه أطاع حكم القلب منه...

اسمع مني وعني يا «خالد»؛ إنني لستُ متعلمة مثلك... ولكن الحياة أكبر معلم بعد الله، وهي من صنع يديه علمتني، وليس بعدهما مُعلم، حكم العقل غير القلب يا بني، وأبوك صار وراء قلبه، لكنه حكَّم عقله لما أراد الحلال، ولو فعل العكس وحكَّم العقل وتزوج من بلدنا لما أعياه القلب، لكنه اختار...

وبكت بكاء مُرًّا وزوجها الذي لا يعرف له اسمًا يجلس بملابسه الشتوية خلف مقود سيارة فاخرة، والجلباب والعباءة والتلفيحة تحيط بجسده كله:

- لا تريد الحياة لي مجرد البقاء معك ساعات، وإننا لفي سفر قرابة عشر ساعات لنصل إليك... أترك روحي هنا لديك لتحرسك، فما أنت بأقل معزة من «عصام» و«هدى» ولديّ، وليتك تتعرف عليهما وتستطيع استرداد ميراث أبيك، وإنني لأتمناها لك، ولكن والدتك لن ترضى... لن تهديك لنا، وقد ذاقت منا ما ذاقت بعد أبيك...

بُني، اعمل ليوم تكون الحياة بين يديك حلالًا، فإن الله وهبك وسامة وحسن مظهر، فلا تجعلهما إلا في الخير والطهر، وإلى أن يحين حين تلك التي تعوضك عما فقدت بعد أبيك ومنا وفينا، حذار أن تجرفك فتاة أو امرأة فتضيع مع ملاحتك وحسنك... أما ابنة الحلال التي ستنالك فحكّم فيها العقل والقلب معًا... وإن تغلب عليك الأول فليكن العقل حاضرًا... وتحمّل...

لن ينسى عمته الراحلة «بسمة»، فقد قال جده لما سئل عن سبب اختيار اسمها، كما روى أبوه له:

- لم أجد لها اسمًا أفضل... في روحي...!

وكانت الشقيقة التالية وراء أبيه...

بكى في الشارع، منتهزًا الظلام، واضطر لكي يتماسك إلى الاتصال بالحاج «مصطفى» قائلًا، وهو ينتظر القدوم إلى بيت زوجته مع وقف التنفيذ:

- معي نصف الساعة وأصل...

فقال الرجل في حنان وحزن:

- أعانك الله يا بني...!

يعرف أن إعصارًا ينتظره، وأن حبيبة القلب في أقسى درجات غضبها، وأنها لن تُبقي له ولن تذر، وقد تذهب إلى حد فسخ العلاقة...

قال لنفسه:

- ليتني لا أذهب... لا قدر الله...

واضطرته التي بين جنبيه إلى الابتعاد عن توقع أو تذكر ما سيحدث، فإنما لكأنه رأى منامًا ما هو مقدم عليه، والدموع التي سترقرق في أربع عيون بعد قليل، واللوم الشديد، وعدم محبته الدفاع عن نفسه، فيما يعرف أنه متهم لدى «سماء"، وأنها لا تسامح في نسيان قليل المحبة وتصفه بالكثير، وهو الذي طالما عانى الغياب الشديد، وصار في مدينة المنيا من شمالها إلى جنوبها، من سينما «ميامي» الأكثر قربًا من المحطة، وبعدًا عن الخصوصية إذ تقترب منها الشركات التجارية الإنشائية ومحطات

التزويد بالوقود، مما لم يكن يحب أن يراه أحد من المهندسين أو العمال، وجميعهم أصدقاؤه في مثل هذا المكان، كان يحرص على الخصوصية طوال حياته، وفيما عدا مرة أو مرتين خرج فيهما مع «مها»، فلما رآه أحد العمال ابتسم في خبث، فصمم «خالد» أن تكون المرة الأخيرة التي يتمشى معها في هذا الطريق، وتساءل في قسوة عن كلمات عمته، وقد ماتت قبل شهور؛ هل نسيها؟

كان يذهب إلى سينما «ميامي» متخفيًا لما عرضت فيلم «مولد يا دنيا» أثناء امتحانات الصف الثاني، فراح ورسب لأول مرة في حياته في «مادة»، ولولا أنه تمسك بكلمات عمته لما نجح من بعدها في أي مادة.

كان يعاني الحرمان وهو يرى قصة حب عفيفة على الشاشة الكبيرة العملاقة، ويتمنى أن تكون في حياته، ولكنه يخشى على نفسه تهلكة الجسد والروح بما يقع فيه بعض الزملاء، وإن كان لا يعرف إلا أقل القليل منهم، أما الأخرى فهو أن يغرق في هوى قبل موعد تملكه لمفردات حياته، فينسى تعليمه وأمه، ويبقى عند طرف رداء التي أحبها...

وقرب مزلقان الإخصاص الفرعي للسكك الحديدية، قبل المحطة الرسمية كم اشتم رائحة تزييت وتليين القطارات، استعدادًا لانطلاقها إلى المحطة الرئيسية، واشتم رائحة الزيت هذه كرائحة الفول المدمس الذي كانت أمه تتمعن في إعداده أيام كان لا يجد من الطعام إلا هو، في ليال كانت تتركه فيها وتذهب إلى إخوتها؛ أخواله لتأخذ منهم مالًا تنفق عليه منه، قائلة:

- تمنعونني حقي... ويمنعه أهله حقه، لا يراني الله متجهة نحو بابهم، مع تخاذلهم وإنكارهم ميراث زوجي لمجرد أن ابنهم أحبني وتزوجني وفق شرع الله... ولن تروا ابني مهما فعلتم...!

كانت تفعل هذا في الوقت الذي كان أشد ما يكون فيه حاجة إلى لمسة حنان من هؤلاء، وعدم رغبة في عناد أمه!

وفي المنيا كان يحلو له أن يحكي في العامين الثاني والثالث حينما سكن في المدينة الجامعية القديمة التي كانت مستشفى، قرب كلية الزراعة، وفي الجديدة في العام الذي يليه... في المنيا أدمن المسير واشتمام رائحة زيت الفول المدمس قرب النافورة

قبل المزلقان، وعند مدينة البنات القريبة إن لمحته مشاغبة كانت تصيح:

- أما زلت وحيدًا يا «خالد»، يا بني أحبنا فلسوف تجد علاجك عندنا؟!

وكانت شرفات قليلة تضاء عندها، وتهتف أخريات:

- يسير وحيدًا ما يزال... يا بُني نحن هنا... لسنا لدى القطارات...

لتجيبها نافذة في طابق آخر:

- لسنا لدى القطارات فلا تسافر إليها... انظر إلينا...

- ارفع رأسك يا أخي...

بعدها كان يسير خلف المدينة لكيلا يعرفنه... وتحتفل القليلات منهن به، على طريقتهن...

وآخر المسير كان يبقى لدى النافورة بعد أربعة كليومترات مُضنية من السير السريع المتعب المُجهد، بعد زيارة السينما، أو غبطته

الناس الذين يسيرون أسارى لدى الكورنيش، الأب والأم، كان يتمنى استقرار سعادتهم، مع أن يهبه الله سعادة أكثر تعوضه عن فقد الأب، وتوسع عليه بالحلال بعيدًا عن مشاعر يبذرها الزملاء لدى زميلات لا يدري يستحققن أم لا... يرى تمثال «طه حسين» الكفيف البالغ الفقر في مثل سنه، فيعرف أن الحياة تعطي مع الألم أكثر مما تعطي مع الرفاهية!

ولدى المزلقان كان يقول لنفسه دائمًا:

- حذار من التورط في علاقة في وقت لا تجد فيه الزيت لتليين مفاصلك، فتتورط فيما يضيع مفاصلك تمامًا!

قرب المزلقان كان يقول لنفسه، موعد تليين قطارك لم يأت بعد يا هذا، فلا تستعجل؛ لئلا يذهب القطار من بين يديك بلا رجعه...

وقرب المزلقان في العام الثالث، فور صلاة التراويح، فاجأته «مها» خلف رجل يقود دراجة بخارية بالصياح:

- «خالد» كيف أنت... هذا أبي رويتُ لك عنه...!

وكان آخر عهده بها، ظنت أنه لم يصدق أنه أبوها، وأنه يكذبها لما غادرها تمامًا، وهددت بادعاء أنه عاكسها، وأنه... وأنه... وأرسلت «هشام» بكلمات بالغة الوضوح:

- مستقبلك قد يضيع...

وجلس «فهمي» معه، واستدعاه المعيد...

لاموه...باختصار.

لكنه كان لاحظ أن قلبه بدأ يميل إليها، وكان هذا أحد دواعي وبوادر الخطر الشديد اللذينِ لا لعب فيهما ولا معهما لديه، أخرجها من حياته، برغمها، وكادت حياته أن تتوقف فما تردد...

وها هي ذي بعد أن قارب قطار القلب الوصول إلى «سماء» المُحبة، تعود إلى حياته من جديد برغمه، بل تهدد قصة حبه الوحيدة بالذوبان والانتهاء...!

كان رأي «سماء» في «خالد» عقب رده مقدم تشطيب شقة العمر واضحًا ومحددًا، ينبغي عقابه على ما فعل بعدم إعادة المُقدم إليه، وإن أراد، وتركه يعمل في مكان آخر بعيدًا عنهم، والبحث عن مقاول محترف يتولى الأمر، رجل كما يظهر في الأفلام العربية يرتدي الجلباب والكوفية والعمامة على رأسه، ويتحدث بقسوة مع العمال، وبلين شديد مع أصحاب الشقق التي يعملون إلى حين لحسابهم.

لا يجوز لديها، ولا ينبغي، ولا يدخل في عقل بشر أن يتولى عملًا في شقة عاشوا عمرهم يجمعون ثمنها، ويوفرون من قوتهم وطعامهم وملبسهم بل دوائهم الضروري من أجل الوصول إليها، لا يُعقل ولا يُقبل أن يأتي شاب، وهي لم تدقق في ملامحه لتعرف هل هو في نهاية العشرينيات من عمره أم منتصف الثلاثينيات، الأهم لديها هو أنه ليس مقاولًا من الأساس، يرتدي القميص والبنطال، ويتعامل مع أصحاب (الأملاك) على أنهم تابعون له،

مع أن الأصل أنه هو الذي يتبعهم...

- ثم إنه لا يعرف كيف يتعامل (مع الناس) تحدثينه فيضع عينه في الأرض، ويستمع إليك دون أن يُعيرك اهتمامًا، أو حتى يستقبلك بوجهه، وحين لا تعجبه الكلمات يهز رأسه في استخفاف، ويلتفت بالرأس التي لا تواجهك من الأساس، إلى الناحية الأخرى حين تثقل كلماتك عليه، ثم لكأنه ينصب لك (محكمة) مع كل كلمة تقولينها، وبعد ثوان يُصدر الحكم بنفسه، دون مفاتحتك فيما يدور في رأسه، أو استماع إلى دفاعك، وغفلة يقطع كلامك ليرمي لك النقود، وإن لم تمدّي يدك، لم يستأنف حكمه، وإنما عاد إلى محكمته ليصدر الأمر بترك المال إلى «فريدة» الصغيرة التي لا تعرف شيئًا عن الحياة، ولا عن (أمثاله)، لمجرد أنها أتت معي إليه...

ثم إنه يسير وسط الأرض غير المستوية، أرض الشقة مرفوع الرأس، ينظر في عمق إلى السقف المستوي، وإن كان مكشوف الطوب الأحمر، وتسقط عنه ماسورة برتقالية مخصصة لتوصيلات الكهرباء، يفتح الباب هكذا ثم يتسرب خارجًا، وكأنه لم يخسر

(زبونًا ولقمة عيش له ولأصحابه الذين يحيا معهم)، فمثل هذا لا يمكن أن تكون له أسرة، أو أب أو أم يعلمانه كيفية التعامل مع (الناس)!

وما يؤلمني أن أبي مصمم عليه، يقول إنه أمين وشاب طيب، ولكني لا أعرفه، ومن قال إنني أريد أن أعرف أمثاله، أو إني أريد أن أعرف (شبابًا أو مقاولين)، إنني لا أعرفهم ولا أريد معرفتهم، وأحكام أبي عليه وأمثاله أحكام دقيقة، ولكن أبي أحيانًا يخطئ في الحكم على الناس، حين يريد أن يرجع المفتاح إلى مثل هذا الشاب الذي لا أعرف إن كان مُرفَّهًا أم مُستهترًا لا يهتم بالناس ولا بلقمة عيشه، ولا يعرف كيف يكسب (الآخرين) قبل رزقه!

إنني لا أعرف من أي نوعية من البشر و(الشباب) هو؟!

هذا غير أني معروفة في الكلية ب-(القطار المَجري)؛ ذلك لأني لا أترك فرصة لشاب بمجرد أن (يُمني) نفسه بمجرد (ألحُلم) بأن يتعرف إليّ، لا أن يتقرب مني، هذا محراب علم، لا دخل له بالعلاقات العابرة أو غير العابرة، إذا أردت القول، لو احتجت مُذكرة أو ملخص محاضرة لم أحضرها أخذتها من زميلة...

مرة غبت وجاءني أحد (الزملاء) يقول إنه (نسخ) لي المحاضرة... نظرت إليه طويلًا، لم أتهرب منه كـ(صاحبنا) ذاك، ما اسمه، لا يهم، المهم قلت له سآخذها من زميلة، وتركته ليمضي، فيما قال في صوت مسموع «مغرورة»، أكره أولئك الذين ينصبون أنفسهم قضاة على الناس إن ساعدوهم أو حتى رفضوا مساعدتهم...

بل إنني التي تترك الناس، فكيف يتجرأ «خالد» هذا على تركي؟!...

لم أكن أعرف اسمه، ولكني تذكرتُه الآن... كذلك كل واحد منا يتذكر، غفلة، أسماء الذين نبالغ في كرههم، أو نود أن نفهمهم!

إنه من (الطراز) النادر من البشر الذي يريد إعلاء كرامته فوق كل الاعتبارات، بما فيها لقمة العيش، المقاولون يلعبون بالبيضة والحجر، وهذا حالم يريد من الناس أن يعاملوه كمدير... هم يعملون في (الدائرة) عنده، لا هو يعمل لديهم، هذا كيف يتعامل مع العمال، إما أنه تابع لهم (يفسد) الشقة لنا، أو إنه يعاملهم باحتقار فيتعمدون إفساد العمل و(الشقة) لنا، إنني لا أريد أن أراه ثانية، ولئن

أتى به أبي ليكمل الشقة فلسوف أقوم بطرده منها بنفسي، وأمامكم جميعًا، سأجمعكم في السيارة، لن تسعكم، سآخذ نفسي في سيارة أجرة قبلكم، ثم أطرده أمام سكان العمارة التي لم تسكن، بل الحي كله، وقد أطلب له شرطة النجدة...!

كيف يتجرأ؟

غريب وعجيب، ثم يقول له أبي إني أخته، كل (الحكاية) أن الوقت قد (دخل) علينا، فيما ينبغي أن نغادر هذه الشقة؛ لذلك احتجنا لمثل هذا (الشاب) المغرور بالفعل!

لكن ما يؤلمني هو أن أبي اتصل به، وحدّث أمي بصوت خافت، وهو نادرًا ما يفعل هذا، ولم يقل لنا عما ينتوي فعله، وأخشى أن يذهب بنفسه ليعطي ذلك الشاب المفتاح مجددًا، واضعًا (مكانتي) لديه عرضة لهذا الاختبار... لقد ترك لنا العربون، فكيف يأخذه (ثانية)؟! إنه ليس بمنطق ولا عقل، لم أرَ أبي مخدوعًا في الناس من قبل هكذا، يتعامل معهم بحسن نية، هذا يحتاج (الترك) والترك فقط، ثم النسيان.!

- فلماذا لا تنسينه أنت؟!

- «صفاء» الزمي حدودك في الحديث معي، ولا تنسي أني أختك الكبيرة الجامعية، وأنك مجرد طالبة في الثانوية العامة!

- أنا أيضًا عليّ أن الزم حدودي لا «خالد» فحسب؟

- ومَنْ «خالد» إن شاء الله حتى تذكري اسمه أمامي؟!

- ذلك الذي صدعتِ رأسي به، للمرة الأولى في حياتك، لك ساعتان تتحدثين عنه وعنه فقط، ولولا اني كنتُ معك ورأيتُه، ورأيتُ رقي أخلاقه لصدقتُك... تريدين منا نسيانه، رغم أنك ستأخذين سيارة أجرة، في مرة نادرة في حياتك، لحرصك على كل قرش من مصروفك، ثم تحكمين علينا بالذهاب إليه لطرده من (شقتنا) التي أنت ضيفة عليها، ثم إن أباك، الذي يعرف مئات البشر مخطئ في الحكم عليه، مع أنك فهمته من أول (نظرة)، رغم أنك لا علم لك بـ(الشباب) من أمثاله أو من أمثال غيره؟!...

انتفضت «سماء» قائمة من مقعدها الصغير حيث كانت تستبعد الحبات غير الصالحة من الأرز أو الحصا الصغير منه، فيما تقوم أختها بتقشير البطاطس، فلديهم ضيف اليوم لم يفصح أبوها عن

اسمه، وواجبٌ إكرامه... صاحت «سماء»:

- «صفاء» لا تتحدثي معي اليوم كله...

- لدي كلمة أخيرة...

- لا أريد سماعها.

- لا تريدين سماع كلمات (عنه)، مع أنك لا تغادرين المكان حينما تجيء سيرته، ومنذ قمت من النوم وأنت تُحللين شخصيته، وتعرفين أنه جامعي، ويعمل بالمقاولات... ثم إنك لا تقبلين حكم أحد عليك، مع أنك تحكمين عليه لمجرد أنه لم يُحسن (الكلام) معك، وأنت التي تزهدين في الكلام مع الشباب...

ابتسمت «صفاء» ابتسامة رأتها «سماء» قمة المكر، بل إنها لم تر أختها (ماكرة) بهذه الطريقة من قبل، لا بد من البحث عن (طريقة) تلزمها بها حدودها، وتجعلها لا تحدثها بهذه (الطريقة) من بعد...

اقتربت «سماء» من أختها بشدة وقالت لها، وأصبعها السبابة مشهرة، مرفوع قرب عينيها:

- انظري إلي...

- أنا أيضًا... ينبغي أن أنظر إليك... إنني أكثر واحدة في الوجود ملازمة لك يا ابنتي... منذ نصلي الفجر إلى أن ننام فوق سريرين متجاورين... وأدعو الله لك كي تنهي عامك الجامعي الأخير هذا بسلام، كي تُخطبي وتتزوجي، وتغادري السرير لتأتي إليه (الغلبانة) «فريدة» التي تقيم بمفردها، بناء على (فرمان) منك في الغرفة الضيقة، كأنها في حبس انفرادي...

لمعت عينا «سماء»، وبدت ابتسامة تحاول إخفاءها فوق شفتيها:

- ما دخل «خالد» بغرفة «فريدة» بالخطوبة...؟!

صمتت «سماء» كأنما أخطأتْ في الحديث خطأ فادحًا، واحمر وجهها بشدة، وأرخت أصبعها، والتفتت بوجهها، لتقول أختها «صفاء».

- بسم الله ما شاء الله يا «سماء» صرنا نحفظ اسمه... ونلتفت مثله... حين تجيء سيرته، رغم أننا سنطرده من الشقة إن جاء إليها ثانية، ونعرف من أبي أن أباه توفي في صغره ويعيش مع أمه، وهو

صاحب إرث حرمه منه الأعمام والأخوال لمحبة أبيه لأمه البعيدة عن العائلة، رغم تقاليد الصعيد الصارمة في هذا الأمر، وكما حكى «عمو علاء» الذي شطّب «خالد» له شقته... ولا أعرف ماذا بعد يا «سماء» هل...؟

صمتت «سماء» مُكرهة، فيبدو أن عليها أن تعترف أن شيئًا ما يعمل في نفسها للمرة الأولى في حياتها، وهي التي لا تحب إلا أن يكون ظاهرها موافقًا لما في قلبها تمامًا...

أرادت «سماء» أن تقول شيئًا فاستحيت منه... فيما قالت «صفاء» الأقرب إليها:

- لا تخافي لن (أبوح) بما ألمسه منك لأحد ولا لنفسي... ولكن من يعرف من دعاه أبي إلى الغداء اليوم؟ أيكون ذلك الشاب المتكبر مع أنه كان سيعمل لدينا؟ لولا أننا ذهبنا لمتابعته، بناء على رأيك، قبل أن نعرف ماذا سيفعل من الأساس...

- «صفاء» ذهبنا لمتابعة العمل، ولأننا لسنا أقل من أن نفعل، وليس لأننا بنات نترك شقة عمرنا لـ«شاب» يعمل فيها دون أن نعرف.

- شاب أم «خالد»؟!

- صفاء... آخر إنذار...

- شقة عمرك يا أفندم شقة بيت العدل لا شقة أبيك...

- أنت تتجاوزين حدودك...

- أم مغرورة؟

- «صفاء»... ولا كلمة...

دخلت الأم مسرعة تصيح:

- بنات صوتكما أقلق أباكما... ماذا يحدث؟

صاحت «صفاء» مهددة ومبتسمة:

- هل أقول لأمي؟

- والله لا أحدثك أبدًا!

- هكذا استسلمي... مَنْ ضيفنا على الغداء اليوم يا أمي؟

- أوَلاَ تعرفان؟... «خالد» الذي افتعلت «سماء» شجارًا معه!

لاذت «سماء» بالصمت مع أنها نادرًا ما تفعل، والتفتت إلى

الناحية الأخرى، يظهر الغضب على وجهها مع سرور عميق دفين يجتاح قلبها النقي الصغير، وروحها تحدثها أن قصتها معه بدأت... لكن فيها ما لا يسرها، والعقل منها يُناشدها البعد عن هذا الاختبار في وقت تستعد فيه لامتحانات الفصل الدراسي الأول، وتريد اقتناص تقدير عال، يُكلل وينهي أربع سنوات من الدراسة، ويسمح لها بالالتحاق بالدراسات العليا، ليت أبي لم يفعل... صاح القلب:

- .....

فيما كانت عينا الأم والأخت ترقبان القلعة المنيعة، والصخرة الصلبة التي لا تلين وهي تصمت، ويبدو أن القلب منها غزاه وافد لا تستطيع رده بأي طريقة!

- أعانك الله يا بني...!

إنه يفهم كلمات «والد سماء» جيدًا، ولذلك يخاف للمرة الأولى من مقابلة ابنته، وهو الذي كان يفرح بهذا اللقاء، يعرف أنها جادة تمامًا في الحياة، لا تعرف الميوعة ولا اللين، ولا تقبل الخطأ، وهي على النقيض تمامًا من «مها» التي ساقتها المقادير إلى طريقه من جديد، بل إن «سماء» لها من اسمها نصيب، يشعر بأن أرض حياته كانت تحتاج إلى غطاء وستر، فجاءت لكي تمنحه الفرصة لكي يعيش في سعادة.

ولكن الاختبار صعب هذه المرة، حتى إنه ليؤخر قدمه عن الدخول إلى بيتهم، ورؤية حبيبة القلب التي يعد الأيام لتصبح زوجته مع التنفيذ، لا مع إيقافه، كما هو الحال الآن.

قالت «مها» له في اللقاء الأول، بعد أن تركهما المُعيد قرب قاعات (السكاشن)، وغرف الأساتذة:

- إننا زملاء؟!

- وهل أنكرت...

- ولكنك تتحاشاني؟

- مشاغل.

- الطوب والمعمار...

- شرف لي ...

- خلاص...

- ولكنك لا يخفى عليك سر؟

- بخاصة مَنْ أريد أن أعرف عنهم كثيرًا...

لم يجد خيرًا من الصمت في حوارها الأول، المفترض أنه هادئ معه، وهي لا تترك كلمة إلا وترد عليها بحدة وقوة...بل تعيره بعمله في المعمار، ولم يطل صمتهما إذ عاودت الهجوم من جديد، وكأنها تريد الانتصار في معركة وهمية ليست موجودة إلا في خيالها!

- لماذا تعاملني على أني «سيئة»؟

هل كانت تُناور لكي تعرف ثغرة؟ مساحة ولو صغيرة تنفذ منها إليه، إذ يبدو أنها ملّت العلاقات العابرة، وساقتها المقادير إلى طريقه، وهو يريد فحسب ألا يكون في ذهنها، فهو ليس من الشباب الذين يمضون ولو جزءًا من الوقت في تفاهات، ويعرف أنها ذات علاقات لا يرضى عنها، وإن لم تكن مُتهمة لديه، ولكنه يريد ترك أثر حسن لديها، ومن يدري فلعلها تكون صاحبة نفس رجاعة إلى الصواب، ولو بعد حين، ولعلها ترتبط، بعيدًا عنه، فيما بعد بالذي يساعدها على الطريق الصحيح الذي يعرفه ملايين البشر من بيت وأسرة وأطفال!

كانت الفرصة لديه متاحة لمحاولة إصلاحها عبر سؤالها الأخير:

- لماذا تعاملني على أني «سيئة»؟!

تريد وضع العربة أمام الحصان برؤية ما في نفسه كاملًا؟

ومع عدم راحته لملابسها، والأقاويل التي تثار حولها، وحتى

للطريقة التي دفعته دفعًا بها إلى الحوار معها، لكن ما باليد حيلة، المُعيد الذي عرفهما نصحه بمحاولة إصلاحها، وعلى كل حال لعل الأمور تتحسن، أجاب في نبرة صوت حاول جعلها محايدة:

- بل أنت إنسانة محترمة...

ابتسمت في رضا وهي تنظر إليه في شكر، فالتفت إلى الناحية الأخرى، ودعا الله في نفسه أن يوفقه للحفاظ عليها، وحتى ذلك الحين يُبعد شرها عنه، قصتها الأخيرة مع «هشام» تدوّي في الكلية كلها، بل صارت تهدده هو شخصيًا.

سيجيب على أسئلتها، فحتى «فهمي» زميل الدفعة السابقة على دفعته، يتدخل بنفسه، مع ترفعه المعروف عن التفاهات، وهو يفعل خوفًا عليه، الكلية مليئة بالرجال المخلصين من الأساتذة والمعيدين والزملاء، ولكن هناك القليل، أيضًا، الذين لا يرحمون تجاه «التفاهات»، وهو وصل إلى العام الثالث منها بصعوبة مع عمله في المقاولات، وبقيت «مها» صخرة قد تُوقف كل شيء له، بخاصة مع نسبة غيابه التي قد تحرض «مها» لأجلها معيدًا وآخر ضده... هل يفعل الصواب الآن؟

سأل نفسه أم أنه ينساق خلف ما لا يدري بكل ما مضى من أسباب وتبريرات؟

قالت:

- هل سنقف هنا كثيرًا؟

تنظر إليه نظرة لا يُحبها، إنه يستحي منها، إنها تعرف تمامًا أنه غير مرتاح لها، ولا لمجرد بوادر المعرفة، ولكنها تريد منه أن يتقبلها، كمن يُدخن للمرة الأولى فلا تعجبه السيجارة، ولكنه إن أبقى عليها سيعتاد الآلاف منها طوال حياته!

وكانه في بئر عميقة، وهناك من يجذبه لكن لا يدري إلى أين... قال بعفوية:

- إلى أين؟

- المكتبة... هناك بحث... أم أن لديك عمل خارجي؟

لا يدري لماذا فهم الأمر على أنه تهديد مُبطن، مع محاولتها الواضحة تخفيف حاد كلماتها، لكنها في نفس الوقت تختار المكان

الذي يحبه؛ إذ تعرف شغفه بالكتب، ولكن تهديدها لديه في النهاية ليس إلا دليل ضعف...

وفي الطريق استوقفه تعليق من زميلات من الدفعة كن يقفن في مدخل الكلية بالقرب من السلالم المؤدية إلى المكتبة:

- هل استطعتِ الوصول إليه؟

- وهل يعرف عنها ما يكفي؟

- إنه لا يحضر معنا.

- ها نحن نقول ويسمع... ابتعد عنها...

خرقت الكلمات «طبلة أذنه»، كما يقولون، فزادته ألمًا إلى ألمه، لكنه استحيا أن ينظر إليها ليرى تأثيرها عليها، فيما كانت (هي) تنظر بدقة، أوَ لا تعرف أنها معروفة لديه؟ فلماذا لا تعفيه من الحرج وتنصرف عنه؟ ليست تعرف قيمة المكتبة الحقيقية... فلماذا تصر على اصطحابه إليها؟ أفلم تؤلمها هذه الكلمات بما يكفي؟

كانت أمينة المكتبة تنظر إليه في شفقة وحرص، كانت نظراتها

سهامًا تجرح روحه لا قلبه وعقله فحسب، فيما كانت «مها» تبدي الإعجاب الشديد باختياراته من الكتب، بطريقة كتابته، بدفاتره وأقلامه...

فهم العقل منه أنه سلاحها في مواجهته، السلاح الأنسب لشاب عانى الإهمال من الأهل طوال حياته، ويفتقد الأم في زحام البشر والدراسة والعمل، لكنه بدأ يرتاح إلى إعجاب «مها» به...

وفي المقابل قالت له، وهي تحاول الاحتماء به، وينظر فجأة فيرى ضعفًا حقيقيًا على وجهها:

- لماذا لا تنظر إلي... كما يفعل الزملاء كلهم؟

- أو تعرفين أن الله خلقنا في أجمل وأبهى صورة...

- فهمت... دقائق ...

تركته إلى دورة المياه، وعادت وقد عدلت من حجابها، ولفت الجاكيت على خصرها، وأخرجت البلوزة من البنطال، وبدى وجهها المشدودة مرتاحة في مرة نادرة... كانت لحظتها ذكية ولماحة...

سألته بهدوء:

- وماذا أيضًا؟

- أمرنا تعالى بغض البصر والابتعاد عن مواطن الشبهات، الاختلاط الزائد...

- هل الاختلاط محرم؟

- أبدًا؟

- فماذا إذن؟

- في الحروب كان «الرسول»، ﷺ، يجعل السيدة «رفيدة بنت سعد الأنصارية» مع النساء في خلفية الجيش لعلاج المرضى، بل كان ساتر النساء عن الرجال في مسجد «الرسول»، ﷺ، من القماش...

- شيء عظيم...

- لكن ديننا يخاطب العقل والروح يا «أستاذة»... فيطالبها بالعفة... والبعد عن الصغائر...!

- أنت الأول الذي يقول لي هذه الكلمة في حياتي... كما أنك الأول الذي لا يدمن النظر أو يحاول القرب مني ... هل أنت «ملاك»؟

- بل إنني بشر أحاول أن أرتفع فوق نزعات نفسي.

- وما نزعات نفسك؟

- القرب من الفتيات... النظر أو ما هو أكثر إلى ما لا يحق لي أن أنظر أو أقترب منه...

- لماذا؟

- لأن الله الذي خلقنا وأبدع تكويننا أعطانا «الكاتلوج» ودليل الاستخدام التوضيحي لطريقة معاملة أنفسنا وغيرنا.

- وما هو؟

- معي نسخة منه أوَ تقبلينها هدية؟

- بكل امتنان وسرور.

- هذا.

- «القرآن الكريم»؟!

- أنت غريب... تهديني مصحفًا في أول «خروجة»... لم أر مثلك، ولم يُهدني أحد مثله؟

- بل إن هذا هو الأصل... ولكي يحفظك صاحبه!

- من «الذئاب»؟

- تعلمين؟

- نعم ...

ران عليهما صمت طويل، كان خلاله ينظر إلى «كتاب الله» بعمق يحتمي به من مجرد تسللها إلى نفسه محاولة البقاء فيها، مع فراغ عاطفته النقية، وجفاف حياته، ووجه أمه الذي لا يغيب عنه، فلكأن روحه تخاف عليه من «مها»، حتى وهي تبدو «مستسلمة» للطاعة ...

قالت له روحه في همس لا يسمعه إلا هو:

- وهل يتغير الإنسان في ثانية ويترك عمره وراء ظهره؟

- ممكن؟

- نادر!

كان العقل والقلب يتهامسان بداخله... فيما كانت «مها» تقول:

- لن أترك مصحفك؟

كان الطبيعي الذي تنتظره أن يقول لها: «لن أتركك»، طال انتظارها حتى أشفق عليها فقال:

- ولن يتركك.

طلبت منه توصيلها إلى المدينة الجامعية، فعلم أن سيناله من الكلمات ما لا يطيق، وتخيل الفتيات في النوافذ والشرفات يعايرنه بابتعاده عنهن ثلاث سنوات ليسير مع «مها»، فقال:

- حتى منتصف الطريق.

فانطلقت تسير وتضحك وتروي:

- أمي تعمل في دولة خليجية... وأبي ظلمها بطلاقها، هي ليست جميلة، ولكنه اختارها لما كان فقيرًا مُعدمًا، وعاش معها، أنجبتني و«أسامة» أخي الصغير، لكن لما توطدت علاقات أبي، وصار ذا نفوذ في الجامعة وخارجها، تخلى عنها بمنتهى الاستخفاف، كما يحرص على معاملة الناس، والآن هو يدور مُتخفيًا في الطرقات، قد تجده في فندق مع فتاة من سني أو أقل،

وربما تعجل فتجده في الطابق السفلي من الكورنيش مع أخرى!

طأطأ رأسه متحسرًا... إنها تريد القول له: كيف أنجح في الدراسة إن كان هذا حالي؟!

قالت:

- أريدك إلى جواري ولك كل ما تريد...عقب التخرج نسافر للعمل إلى جوار أمي، تنجح دون حضور (سكاشن) بنفوذ أبي، لن تعمل بالمقاولات، لدينا ما يحتاجك وهو أفيد وأوفر مالًا لك...

لا يُنكر أن نفسه مالت إلى كلماتها، لكن أشد ما آلمه هو قولها إن أمها وأباها، على اتساع الهوة والمسافة بينهما سوف يساعدانه... إنها تجمع بين المتناقضين بما يُفهم منه أنها تخدعه لتتملك أكثر منه، إنها تَقبل «المصحف» لكي تهادنه، وتريد نزعه من «المعمار» لا من أجل حياته، بل من أجل أن تتملك منه، لتنهي وجوده وعلاقته بأمه، لتبدأ صفحة جديدة من وجودها في حياته، ودورانه في فلكها، ومن ذا يدري: هل ستقطع علاقتها بالآخرين حينها أم لا...

وهو عائد، استمع إلى زميلة في الجامعة يراها بدقة للمرة

الأولى، إذ يعرفها دون تدقيق.. وهي تصيح في وجهه في حدة واستنكار وتعجب:

- «مها»؟!

كانت الفكرة تختمر في ذهنه حتى نهايتها!

لما علمتْ «سماء» أن أباها يدعو «خالدًا» على الغداء، لم تستطع أن تخفي ابتسامة ظهرت غصبًا عنها أمام أختها التالية لها المُلمَّة بكل شاردة وواردة تهل على خاطرها...

لكنها لمَّا تركتْ أعمال الطهو وغسلتْ يديها، فيما أختها تبتسم وأمها متعجبة، تعجبتْ أكثر من نفسها، أوَ ليس هذا بالفعل الذي اشتكت من طريقة حديثه معها؟ وهو نفسه الذي تسبب في عتاب أبيها، وإن كان الأخير استخدم كلمات حنونة لكنها لا تمنع أنه عتب عليها بقوة أنها ذهبت بأخواتها إلى الشقة للقائه، دون اتفاق معه، وأنها «كبيرة» بما يكفي لكي تفهم أن الأمر الذي يصمت عنه معناه أنه يعترض عليه، لا أن تأخذ أختيها مُكونة جبهة موازية، وهي الكبرى لتذهب بهما إلى الشقة طالبة متابعة العمل ونسخة من المفتاح الذي سلمه والدها ل-«خالد» بنفسه، وكأنها لا تستأمن «خالد» عليها، أو على العمل بها.

كانت أقسى كلمات استمعت «سماء» إليها من أبيها عن

«خالد»، ولكنه أضاف:

- لا تـذهب إحـداكن أو تـذهبن مجتمعـات إلـى الشـقة دون اصطحابي بحال من الأحوال...!

بكت يومها لبعض الوقت، ولكنها اعترفت أمام نفسها بالخطأ، فقط تمنت لو أنّ «خالـدًا» كـان أكثر رفقًـا، أو حتى لـو تـرك كلماتهـا التـي ضـايقته منهـا تمـر مـرور الكـرام، دون أن «يـدقق» أو ينتبـه إلـى بعض التفاصيل.

ولكنها رغم كلماتها إلى أختها منذ قليل لا تخفي إعجابها بعـزة نفسه، وعمليته الشديدة في تناول الأمور، فطالما أنهـا ستحاسـبه علـى كل خطوة مع أختيها فلا داعي للعمـل مـن الأسـاس، إنـه يـدخل إلـى الأمـور مـن بابهـا القريـب الحاسـم، ولا يحتـاج الأمـر منـه إلـى كثيـر تفكير، وإن خسر المال.

أكبرته لما سمعت عنه، يعمل منذ أيام الكلية، لـم يجـد عمـلًا في شركة محاسبة مناسبة، فلم ينتظر الوظيفة المناسبة، ولـم يعلـق الأمـر على شماعة الظروف، وأسرع لإنشاء شركته الخاصة عـبر الدعايـة في

الصحف، وملصقات، وتوزيع أوراق إعلانية بها رقم هاتفه المحمول، محددًا أوقاتًا معينة لتلقي الاتصالات بعدها يغلقه، مع دقته الشديدة في المواعيد، إذ حاول أبوها الاتصال به في غير المواعيد التي حددها، فلم يستطع، ثم إن له من بعد هاتف خاص يفتحه على مدار الساعة.

ثم إن الأمور لديه لا تقتضي كثير كلمات أو استفسار، ودس أنفه فيما لا يفيده، رأته مرة قبل ذهابها إلى الشقة بأختيها لم يكد يلتفت إليها، واكتفى بالقول لما عرّفه أبوها بها:

- أهلًا يا أفندم...!

معاملة فيها تلطف وحذر، لكن احترام شديد ظل حتى أثناء الخلاف في المرة الأخيرة، لكن مع شيء غير يسير من الألم الظاهر على وجهه... كانت تظن أن المشكلة لديه في أنها فتاة تصطحب أختين لها معها، لولا أن أمها قالت لها:

- أي إنسان محترم كان سيفعل ما فعل يا ابنتي، ولو كنتن رجالًا، وتصرفتم بهذه الطريقة، فلربما كانت النتيجة أسوأ بمراحل...!

لم تكن زائدة على الحياة لما وُلدتْ، كانت أول فرحة في حياة أبيها، وأول بهجة دخلت حياة أمها التي ما كانت مستقرة، تزوجها أبوها لخلاف بينه وبين عمه، ولولا المقادير لكان أبوها زوجًا لابنة عمه، ولكنه رأى عمه يُغالي في شروطه، وأباه يتقبلها في البداية بصدر رحب، ورغم أن جدها لأبيها كان من الشخصيات التي تتحمل في صمت، إلا أنه في لحظة فاض به الكيل فقال لابنه:

- توكل على الله، وأنا أعرف عمك؛ سيظل يغالي ما رآنا نصبر عليه، ابحث لك عن عروس أخرى، الفتيات كثيرات، وحبذا لو تركت العائلة كلها...

وهكذا دخلت «آمال» أمها حياة «مصطفى» أبيها غفلة، أخت أخلص أصدقائه، رآه حزينًا إثر فسخ الخطوبة فقال له مباشرة:

- «مصطفى» إن ابنة عمك هذه عائدة إليك، ولكني لا أحب لك العودة إليها والتراجع في أمر كهذا، عمك هو أخو أبيك الشقيق، وهو أدرى الناس به، وقال لك أبوك عنه إنه مُدلل لا يقدر التنازلات من المحيطين به والاستجابة المُتكررة لمطالبه، وبالتالي ابنة عمك

سوف تتعبك، ربما كانت جميلة؛ لذلك أنت متعلق بها، لكن النساء كلهن في النهاية يتساوين فيما عدا العقل ومن بعده الحنان، فلن تجد الحنان الذي يحفظه العقل في كل امرأة، وسترى العاطفة في جميع النساء، لكن حذار فإن بعض النساء تظل عاطفتها معلقة بأبيها وأمها، وهو أمر لدى ابنة عمك، وهو ما فهمتُه من قصتك، إن كنت صدقتني، والعهد بك أنك كذلك...

- وأين تلك التي سترضى بي الآن؟

- خروجك من قصة حزينة هو الذي يجعلك تقول هذا الكلام، ولن أجيبك الآن، ولكن أترك عاطفتك تدلك عليها...

كانت أم «سماء» هي التي تفتح الباب حين يزور «مصطفى» «عامرًا» صديقه، وهي التي تقدم الشاي من بعيد لدى باب الغرفة إلى أخيها، وتقول لها:

- إنه لم يكن ليخطر لها على بال أن تتزوجه!

وتتنهد مُضيفة:

- لكنه النصيب، كنتُ أعرف أنه خاطب، وعلى وشك «عقد

القران»، ثم إنه كان دائمًا حزينًا لا يبتسم، ولأنه دخل بيتنا منذ نعومة أظافري، وصغر سني، فهو صديق خالكم منذ المدرسة الإعدادية، وأيامها كنتُ بالابتدائية، فقد نظر إليَّ نفس النظرة لقرابة عشرين عامًا، نظرة معاملة الطفلة الصغيرة...

وتضيف أمها:

- الشاب الذي لا يملأ عينيه (منك) هو الأولى بتحمل مسئوليتك؛ لأنه لا يريد منك ما هو عابر من الوقوف لدى الشكل، أو شيء آخر والعياذ بالله، لكنه يحفظك قبل معرفتك وبعدها، في حياتك، وإن قدر الله أن تموتي قبله. أما إن مات قبلك، فيستحق أن تعيشي بعده على ذكراه لتربي أبناءك منه...

تنظر أمها تحت قدميها لتؤكد:

- هل تصدقين يا «سماء»؛ كنتُ قرب العشرين من عمري، لما دخل أبوك بيت أبي، وما كنتُ أعرف أن خطوبته قد فُسختْ، فلما رآني قال لي: «كيف حالك يا أمورة؟»، وكأني طفلة لم أزل!

كانت «سماء» تسبح في هذا النوع من الرجال فور استماعها

إلى كلمات أمها، وتصمت متمنية لنفسها رجلًا كأبيها، تأتمنه على كل ما تملك، وأوله نفسها.

وتنبه «مصطفى» الشاب إلى أن «آمال» لم تعد صغيرة، وتحدث مع صديقه «عامر» عن خطبتها لنفسه، فردّه وقال له:

- ما حدثتُك من أجلها... وهي في حكم المخطوبة...

فحزن «مصطفى»، وكاد يقاطعه تمامًا، لولا أنه لجأ إلى أبيه وأبيها، الذي قال له بعد استماع دقيق:

- أما «مصطفى» فغالبًا لم يخطئ في حق صداقتك؛ لأنه خاف أن تقول إننا انتهزنا فرصة فسخ خطوبتك، وأما ابنتي فتقدم لها عريس، لكنها ولكننا ما زلنا نفكر، ولكن كان ينبغي على «مصطفى" إخبارنا، أما الآن فالأمر لله ثم لصاحبة القرار.

تقول الأم:

- أَنِستُ إليه، خاصة أنه كان يتردد على أخي مرة في الأسبوع، إن لم يكونا مسافرين إلى الجامعة، ولأمانته، وعدم نظره إليّ، لم أكن أعرف أن التي خطبها من قبل كانت ابنة عمه، وأنها ستكون

أقرب إلينا في المناسبات العائلية نراها خاصة أن قطار الزواج فاتها... وصار أبوك هدفًا لها، وكنتُ صغيرة، كلما تأخر قلتُ له: «هل مررتَ ببيت عمك في طريقك، فيكاد يُجن، حتى شرّفتْ «سماء» حياتي فانشغلنا بها، بحركتها، بنظرة عينيها، بحركة يديها، بخطو قدميها، بحبوها، بنومها وصحوها... انشغلنا بها عن الدنيا كلها.

تعتقد «سماء» في قرارة نفسها أنها لم تكن زائدة؛ لا في حياة أسرتها، ولا لما ذهبتْ على موعد مع الأقدار لتلتقي «خالدًا» للمرة الأولى.

ولم تكن قد فرضت نفسها عليه بحال من الأحوال لما زارت شقتهم الجديدة، التي هي ضيقة عليهم، كما قال أبوها، حتى قبل أن يتم تشطيبها، لكن لو أن «خالدًا» مرر الأمور مرور الكرام، ووسعها قليلًا... ترد عليها روحها:

- ربما اعتبرته شابًا عاديًا... ولما اهتممتُ به من الأساس...

فتجيب على نفسها في حيرة من أمرها كله:

- وهل أنا «مُهتمة» به من الأصل؟!

ولما جاء إليهم في المرة الثانية، كلمه أبوها في استكمال الشقة، ولمست صمته الشديد، واحترامه، وحياءه، وروت أمها لها أنه كاد يذوب خجلًا لما اتصلت به أمه حتى إن الدمعة قاربت الفرار من عينه لانتظارها إياه دون أن تذوق الطعام الذي أعدته خصيصًا له، رأت «سماء» فيه مثالًا مُغايرًا للشباب في كليتها، ولكن كان في نفسها منه شيء لم تنته منه إلا لما قالت له:

- سآتي إلى الشقة ثانية قبل أن تنهي تشطيبها...

ولما نظر إلى الناحية الأخرى، ثم استقبل الأرض بعينيه فهمت أنه يفعل ذلك لأنه لا يريد أن يُغضبها، لا تكبرًا منه كما فهمت في المرة الأولى...

وفي السيارة حدثه أبوها عنها في غيابها:

- ابنتي متفوقة تدرس في العام الأخير من كلية الفنون الجميلة، الكبرى «سماء»؛ لذا رأيتَ ما زينتْ به شقتنا، ولذلك تريد أن تتابع، عن بعد، ما ستفعله بشقتنا، وسأضمن من ناحيتي ألا تضايقك؛ لأني أعرف مقدار حساسيتك فيما يخص العمل...

نظر «خالد» إليه في حيادية وخاف إن قال «أهلًا وسهلًا» أن تُفهم كلماته خطأ، فقال:

- ربنا يبارك لك فيها وفي الشقة...

كان يجلس إلى جواره في الأمام فيما والدة «سماء» في الخلف... لكنه شعر من تمتمتها بحروف متقطعة نطقتها في سرعة... شعر برضاها عن مُجريات الحوار.

أمسك «خالد» بهاتفه واستأذن في إجراء مكالمة:

- أمي... معنا نصف الساعة وأصل...

- بسرعة... كيف...؟

- أستاذ «مصطفى» صاحب الشقة التي أُشطبها صمم على إيصالي بسيارته...

- سأعدّ لكم الغداء...

- في مرة ثانية...

خجل أن يقول تناولناه...

وعند الباب وقفت أمه مبتسمة مصممة على دخول الحاج «مصطفى» وزوجته فيما رفضا في تصميم واعدين إياها بزيارة أخرى حين ينتهي «خالد »من العمل في الشقة...

بعد صبر كأنه دهر في نظرها، عقب ذهابهما وتغيير «خالد» لملابسه، قالت والدته:

- ألديهم ابنة... عاقلة وأصيلة مثلهما، إذ يبدوان متواضعين من أصل طيب...

فلمَّا أجابها:

- نعم!

قالت:

- أخشى إن قلت إني حلمتُ بهذا ليلة أمس... ألاّ تصدقني!

وترقرقتْ من عينيها الدموع فصمتتْ.

لو يفهم «خالد»، الآن، لماذا تجعل منها «سماء» مشكلة كبيرة حتى إنه ليخاف الذهاب إلى بيتهم؟

وكان والدها هو الذي يستقبله، وأحيانًا يأتي به من الجيزة... وها هو يخاف من مجرد الذهاب، ويدور في الشوارع على غير هدى... أهذه وصية أمه لها؟ أهذا هو العهد الذي قطعته على نفسها ألا تضايقه، حتى إنها قبلت بـ«كتب الكتاب» مباشرة دون فترة خِطبة؟

ماذا يحدث؟

جاءت إليه فرصة عمل كمحاسب في شركة بدلًا من المقاول الخاص بالإنشاءات وبمرتب ضخم؛ فما مشكلتها هي؟

أوَ ليس هو الذي حكى لها قصة «مها» منذ البداية؟

فكيف لها أن تشك في صاحب القلب الأخضر الذي ما خان أحدًا من قبل، وأهداها بنفسه قلبه، فكيف تظن أنه سيخونها...

هربت منه قدماه بعيدًا عن شقتهم التي شطبها بعناية أكثر من عنايته بشقته الآن، وكانت بعد في مُنتصف مرحلة التشطيب، التي طالت لأشهر لا شهر واحد، كانت قد صارت زوجته، إلا أنها ما أتت مرة دون أمها، وهناك عند تشطيبه غرفتها التي اتفقت معه أن تحل بها ضيفة، وتهديها إلى «فريدة» الصغيرة، بعد زفافها إليه، قال لها:

- أريد أن أفاتحك في أمر ولا تغضبي...

فنظرتْ إليه النظرة التي يعرفها حين تريد أن تفكر في عمق، دون أن تُظهر أنها تفعل، وكانت أمها على مقربة تبتسم، فلما طال انتظاره، وكان يعمل بيده في آخر لمسات الغرفة، حتى قالت:

- لماذا لا تتحدث معي مكملًا كلماتك؟

- لكن تعدينني ألا تحزني...

- أعدك...

- هذه المرة فقط؟

- وكل مرة يا «خالد»...

- أقول...

- توكل على الله...

- هل نحن أدرى بأنفسنا أم الله؟!

قالت أمها على الفور:

- ونعم بالله...

قالت «سماء» في تحفز:

- وبعد؟!

يُكبر فيها أنها تتحدث بما هي مقتنعة به، ولا تقول كلمات جوفاء بلسانها لتتراجع عنها وتقول غيرها في اليوم التالي كما كانت «مها» قديمًا، ولا يدري كيف أصبحت الآن، إنه يرى «سماء» فتاته حريصة على كل كلمة تقولها، وأن تكون عند مستوى المسئولية، حتى وإن تأخرتْ عن فعل الصواب قليلًا...

قال «خالد»:

- كوني معي خطوة خطوة ...

- معك لكن أكمل...

قالتها هذه المرة بشوق، فزاد:

- هو اختار لنا، تعالى، أبدع تكوين...

- صحيح.

تحب التدرج والاقتناع، ولا تأتي برد فعل مُخادع لبعض الوقت، وعندما تقتنع تزول الجبال، وتتحرك من مكانها، ولا يتحرك ما اقتنعت به من داخل نفسها.

- واختار لتكويننا ما يناسبه من المظهر...

- بدأت أفهم...

كانت أمها ابتعدت قليلًا... فيما كان بمفك يتأكد من تمام توصيل الكهرباء في مفاتيح الضوء...

- فكيف يكون داخلنا أخضر مميزًا ومظهرنا....؟

- تقصد الحجاب؟

- نعم...

- أريد لزهرتي أن يوافق مظهرها الجميل جميلَ خلق الله في جوهرها...

ابتسمت في عفوية، ونظرت إليه في شكر وامتنان حقيقيين، وقالت:

- تغار؟!

- الحقيقة... نعم...

ازدهى وجهها بألوان الطيف، وبعد حين قالت:

- أكمل...

- ولكن الأمر يخص حرصي على وردة ندية أحترمها وأقدرها..

- فحسب؟!

- بل «أحبها» يا أفندم...

صمتت ووضعت رأسها في الأرض... وقالت لنفسها:

- نُقلد ما كنا نعيب عليه من **تصرفات** «خالد» في البداية... هه؟

فردتْ نفسها عليها في رفق:

- وهل لي إلا «خالد»؟

أكد «خالد»:

- لذلك أريدك أن ترتدي الحجاب؛ لكيلا يكون لي ولك إلا الله... ثم نحيا بعد رضاه في ظل نعمته.

- هناك من يرتدينه وهن لا يستحققنه؟

- وهناك اللواتي ترتدينه وهن يستحققنه...

- صحيح...

- ونريد أن نرتديه بحقه...

لم تقل له موافقة، بل استأذنت لتنظر أين أمها وأغلقت الحوار... وفي المرة التالية... فحسب... رآها وقد ارتدت «الحجاب»!

في اليوم التالي على لقائه «مها» في المكتبة، ساعدته المقادير على التخلص من الأمر كله في حينها، حدثت ضجة في المدرج الرئيسي لكلية التجارة استدعت تدخل الأمن بعد دقائق، واحتجاز «هشام» في مكتب قائد الحرس لمدة ساعات، ثم صمت عن الموضوع كله، قال أحد الأصدقاء إن «هشام» فور رؤيته «مها» في المُدرج اتجه إليها بكل غيظ وتسرع قائلًا:

- لماذا اشتكيتني إلى قائد الحرس أمس الأول؟ أهذه أخلاق «الزمالة» التي تحدثيننا عنها ليل نهار؟

وأقسم «فهمي» أن «مها» ردت بالحرف:

- بل هي أخلاق الشقق المفروشة والأوراق العرفية التي تقوم بالتوقيع عليها مع الزميلات!

كان «هشام» اصطحب «فهمي» إلى المدرج دون أن يخبره السبب، فهو بالدفعة التي تسبقه، وغالبًا فإن «هشام» ظن أن وجود

«فهمي» سيلطف من الأجواء ويخفف من المشكلة، لكن لم يخطر له على بال ما حدث، ولا رد فعل مها الذي ترك حريقًا هائلًا في حياته كلها...

أضاف «هشام» مُخاطبًا «مها» في صوت مرتفع ونفاذ صبر واضح:

- ومالك أنت؛ هل اشتكى إليك أحد أو أنك كنت طرفًا في ...؟!

لم يكمل «هشام» كلماته، ولم يستطع رغم تسرعه الواضح، أما ما حدث بعد ذلك فكان مُريعًا ومُخيفًا، ولم يخطر على بال أكثر الزملاء تصورًا للشر، إذ انفجرت «مها» في عصبية غير محدودة، ولم يتخيل أحد حينها أن قوة يستطيع إسكاتها، لتقول بصوت سمعته القاعات المجاورة، وأوقف التدريس لمدة دقائق فيها، وأتى بالحرس من عند البوابة:

- يبدو أنك تجاوزت حدك بمراحل... والبنات المُغلوبات على أمرهن اللواتي جئن في طريقك لم يستطعن إيقافك عند حدك، وشكاواهن كانت تحفظ في أدراج الحرس؛ لأنهن لم يكنّ يوقعنها،

وجاء الدور لفضيحتك علنًا... نعم يا «سي هشام» كنتُ طرفًا في علاقة آثمة معك باسم «الزواج العرفي»، فقدتُ فيها كل شيء ثم انسحبت أنت واعدًا بأنك ستمهد الطريق لي إلى قلب زميل آخر، قلتَ إنه يسكن معك في نفس الغرفة، وإنه طيب طاهر نقي النفس، سيحدثني عن الله قليلًا، فلما استقر في قلبي أنه سيتزوجني على سُنّة الله ورسوله، فرحًا بالمال والنفوذ، وصدقتُك، ولكن ضميري أفاق وشكوتك... هل استرحتَ؟! ها أنا ذا أفضح نفسي يا و....

ثم بسرعة فائقة أنشبتْ أظافرها في وجهه وعنقه، وراحت تصيح في هيستريا:

- أستأمنتك فخنتني، ورحت تناور وتراوغ في المرة الماضية في هذا المكان، وتحملتُك، وقلتَ من قبل سنتزوج شرعًا... وإنك ستخطبني من أبي!

لم تفلح دائرية الزميلات التي تكونت في سرعة البرق في انتزاع «مها» من قرب «هشام» الذي سال الدم من وجهه وعنقه، وكُسرتْ نظارته، واقتلعت «مها» خصلة من شعره، ألقتْ بها أسفل قدميها، ثم

تمادت فراحت تضربه بحذائها ذي الكعب العالي الطويل المدبب على رأسه، حتى سال الدم منها، وصاح بها قائد الحرس أن تتوقف، وهددها بإطلاق النار كنوع من أنواع الردع والتخويف، فلم تتحرك من مكانها، بل صارت تهذي:

- هو أهداني مصحفًا في المكتبة... وأنت أخذتَ أغلى ما لدي... ثم فضحتني... ولسوف أقتلك بأظافري...

عند هذا اتصل قائد الحرس بعميد الكلية وطبيبتها التي جاءت و«هشام» يقارب مفارقة الحياة من قسوة ضغط «مها» على رقبته، والثورة الهائلة التي لم يكن من المُتخيل أنت تصدر عنها، فغرست الطبيبة حقنة مهدئة في وريدها... لم تلبث أن هدأت «مها» رويدًا فرويدًا عقبها، ثم اقتيد «هشام» إلى مكتب الحرس، وجاءت سيارة سوداء خاصة لأخذ «مها»، إلا أنها أفاقت قائلة:

- لن أترك حقي... يعقد الآن عليَّ!

كانوا في غرفة الحرس حيث هُدِدَ «هشام» بالتحويل إلى قسم شرطة أول المنيا مُقيدًا في الحديد كالمجرمين، إن لم يكتب على

«مها» الآن، فبكى في هستيريا وقال:

- بعد أن كادت تقتلني... هل ترضونه لابنكم؟!

أجابته الطبيبة الشابة التي حضرت الحوار خوف تصاعده ثانية:

- وهل ترضى ما فعلته بها وبزميلات بكين لدي في صمت، وطلبن ألا أبوح بفضيحتهن... هل ترضاه لأخواتك؟!

ازداد بكاؤه فيما قالت «مها»:

- عرّفني إلى زميل طيب على أمل أنه سيتزوجني... وهددناه سويًا بنسبة الغياب؛ لأنه يعول أمه المريضة بعد وفاة أبيه، وحجب أهل والديه للميراث عنهما، فلما عرفتُ الزميل وجدته مثالًا للنقاء وطيبة القلب، حتى إنه حدثني عن مظهري وتقوى الله وأهداني مصحفًا، لم يكن يدري...

قال «قائد الحرس الجامعي» وقد حضر للتو:

- ما اسمه لأستدعيه للشهادة عليه...

صاحت «مها» في عنف:

- كفى «فضائح» لم يفعل شيئًا... بل إنه رفض توصيلي إلى

مدينة البنات؛ لئلا يراني أحد معه خوفًا عليّ!

في سرعة وتجهم جاء والد «مها» بسيجاره الفاخر وبذلته الفخمة ورائحة العطر التي تفوح من ملابسه، فقال «قائد الحرس» على الفور:

- متأسف يا أفندم...

- لا عليك... أين الولد... هذا الجريح.. لماذا لم تقتليه يا «مها»؟

إنني لا أعمل في الجامعة يا هذا... ومن حسن حظك أنهم شهدوا على ما حدث، وإلا لكان لي معك شأن آخر... عمومًا الأمر لم ينته... هل بإمكاني تسلّمه؟

- ليس قبل أن يعقد عليها... المأذون على حضور يا أفندم...

طأطأ الرجل رأسه، فيما قالت «مها»:

- سيصلح الأمر يا أبي...

فما كان من الأخير إلا أن صفعها صفعة جعلت الشرر يتطاير من عينيها، والطبيبة تسرع لإبعادها عن قبضة يد الأب التي هبطت ثانية على وجه ابنته...

لم تكمل «مها» ولا «هشام» عامهما الجامعي، وقيل إنها حولت إلى جامعة القاهرة، فيما استلم الحرس حاجيات «هشام» من غرفته أو الشرفة التي يُقاسمه «خالد» فيها، وقال ضابط الحرس الشاب للأخير:

- أريدك في كلمتين، ولا أريد لأحد أن يرانا معًا... هل من الممكن أن نلتقي في كافتيريا بالاس إلى جوار السينما حيث اعتدت الذهاب أحيانًا... هل من الممكن أن تلبي دعوتي لك على الغداء اليوم؟ لا تخف من الغياب، لن يُحدثك أحد عنه ثانية...

ذهب «خالد» بعد أن سأل أمه الدعاء، وقال له الملازم أول «نبيل»:

- استدعينا «محمد فهمي» والمُعيد، وعلمنا الأمر من جميع أبعاده... ويدفع «هشام» ثمن أخطائه الآن، لكن...

- الفتيات اللواتي ظلمهن؟

- أولاء لهن الله، لن نستطيع فتح الأمر حرصًا عليهن، مستقبل «مها» يكاد يكون قد تم تدميره، أنت مشغول بعملك ودراستك

وكليتك، ومتابعتك للفنون ومنها السينما، لكن الجامعة كلها الآن تتحدث باسم وسيرة «مها» و«هشام»... صدقني ربنا يحبك أن أنجاك من الاتفاق الذي كان بينهما، ولكني أريد منك وعدًا شخصيًا، وأنت تراني جئتُ إليك بملابس مدنية، لكيلا يتعرف أحد علي... لا أريدك أن تفتح الموضوع لأحد، ولا للوالدة الكريمة... رجاءً باسم والد «مها»...

قيل إن «هشام» لم يكمل تعليمه من الأصل، وإن «الأعراض» التي اعتدى عليها صارت لعنة عليه، إذ لم تقبله جامعة في مصر بعدها، واستطاع والد «مها» بنفوذه إلغاء تسجيله حتى في الجامعة المفتوحة فيما بعد، وأكملت «مها» تعليمها في جامعة القاهرة، وحصلت على لقب «مُطلقة» بسرعة، ثم تزوجت من أحد المهندسين الإنشائيين المعروفين، ثم تم طلاقها ثانية... وكان أمرها لم ينته بعد بالنسبة إلى «سماء» و«خالد».

من رقم ظهر على أنه «رقم خاص» جاء اتصال إلى «خالد» **على محموله** صباح اليوم، فيما هو يعاني من قلة العمل، حتى إن شقته في ضواحي أكتوبر لا يستطيع طلاءها، فضلًا عن الأثاث الذي لم يأت به، فيما ترفض «سماء» الإقامة في الصف، وتأبى نفسه عليه بيع البيت الذي شهد قصة حب أبيه وأمه، وبالتالي ميلاده، وأجمل أيام حياته، وفي شدته هذه، جاءه صوت كأنه يعرفه:

- «خالد»... معك صديقة قديمة...

- نعم يا أفندم...؟!

- «مكتب الجوهرة للإنشاءات»... لدينا مشروع عمل لك... سأرسل السائق لاصطحابك، فقط اترك له العنوان الآن، وافتح هاتفك المحمول عند العاشرة...

- ولكن مَنْ حضرتك؟...

- لا تتعجل حين تحضر ستعرف...

يقع «مكتب الجوهرة للإنشاءات» بقلب أحد أرقى أحياء القاهرة، قادته سيارة مكيفة من النوع الفخم لا تقاربها أكثر السيارات التي ركبها، وهناك وجد إفطارًا وعصيرًا وشايًا في انتظاره، في الطابق الأرضي من بناية جديدة كل ما فيها فخم يلمع بداية من مظهرها الزجاجي الأزرق الخارجي حتى الأثاث الذي يعرف أنه مستورد من أوروبا، بحكم رؤيته لمثله ذات مرة لدى قصر أشرف على جزء صغير من إنشائه بمبلغ أدار رأسه حينها، من هاتفه المحمول اتصل بـ«سماء»، فقالت في غيظ ممزوج بفرح في البداية:

- لولا أن المحاضرة لم تبدأ لما رددت عليك... أوَلا تطيق

تركي ذات صباح ؟... العام الدراسي يودع وأريد مجموعًا تراكميًا عاليًا... فلا تضيع علي عامي الرابع أرجوك!

- لو كنت معي في... ورأيتْ ما أرى...

- من قادك إلى هناك؟

- سائق خاص...

قالت في تحد وحسم:

- «خالد» من أين أتت إليك توصيلة السائق؟...

- صوت أنثى قالت إنها صديقة قديمة...

- ألك صديقات يا «خالد»؟... قديمات أم جديدات؟

- لا...!

- آه، لو أنك قلت غير لا هذه الآن... يبدو أني ارتبطت بإنسان لا يدري ما يفعل...

- ماذا حدث؟! قلت أفرحك...

- بماذا بعودة الصديقة القديمة؟

- هل تعرفينها؟

- وهل لا تعرفها؟

- لا...

- «خالد» اترك المكان واخرج فورًا، ومصاريف عودتك عليّ... وسأعيد النظر في موضوعنا إن لم تفعل بما لا يسرك...

قالت «مها» في سخرية حرصت على أن تُغلفها بمرح:

- أما زلتَ ذلك الطيب الدمث الأخلاق المُهذب الذي لا يستطيع أن يخفي شيئًا... طبعًا سمعت دون أن أقصد جزءًا من المكالمة لا أعرف كثيرًا أم قليلًا؟

هذه خطيبتك؟

- من؟! «مها»... غير معقول!

- ألم تعد المُلازم أول «نبيل» ألاّ تحدث أحدًا عني... لا عليك هي خطيبتك، كل شيء انتهى عمومًا؟... أُريدك أن تدير لي هذه الشركة لالتزامي بأعمال أخرى، ولدي شقة قريبة أهبها لك

مفروشة بإيجار لن يزعجك، ولن يأخذ من راتبك الكثير قرابة النصف فقط، يمكنك الزواج فيها...

كان قد صعد السلم لمقابلة «مها»، وكانت المكالمة اليوم فحسب.

بكت «سماء»، وقالت:

- إنني أصدقك في هذه المقابلة المزعجة لي بعد خمسة عشر عامًا من فراق «مها»، وأنها الساعية إليك لإفساد حياتك وحياتي، ولكني لم أكن أعرف أنك بمثل هذه البساطة والشفافية حتى لتصدق أنها تريدك قريبًا منها لعمل، وتهبك العمل والشقة معًا، وتحدد لك مكان الإقامة والمصاريف... قلت لك دعها على الهاتف وسأيسر الأمر عليك فلم تجبني، لماذا؟

- دخلت عند طلبك مني مباشرة...

- والآن؟

- والآن ماذا؟

- إما أنا أو هي... هل تسمع...؟

لم يعرف «خالد» ماذا حدث سوى أنه كان واقفًا... وغفلة وجد نفسه جالسًا ورائحة عطر قوي تلف وجهه كله، فيما الحاج «مصطفى» يهزه بعنف، صائحًا في فزع:

- أفق يا بني ...أفق أرجوك ...!

ويبدو أنه حاول برفق معه، فلم تفلح المحاولة... فسمعه يصيح، وكان الصوت يرن في أذنيه كأنه قادم من بئر عميقة...

ثم التفت إلى «سماء» صائحًا في انفعال شديد:

- لماذا تتسرعين دائمًا...؟ هو يحبك وأنت دفعته بعيدًا عنك بإصرارك على عدم الإقامة في الصف. لماذا لا تبدئين معه من الصفر... ولديه ما هو أفضل منه... تعب الشاب معك، و«مها» أدارت رأسه بعرض قالت إنها تريده بناء على عمل، وهي صادقة، ولكن ما بعد العمل هو أن تفقديه... لماذا...؟

- أبي، كنتُ أريد...

- إنك تفقدينه، هو شاب محترم قليل المعرفة بحيل البشر، لكنه نادر بمهارته وإخلاصه اليوم، ولذلك ستسعى إليه «مها»

وغيرها... أهذه وصية أمه إليك بالرفق به؟!

- كفى يا أبي؟

صاحت «والدة سماء»:

- هل ستتركونه كثيرًا هكذا... هل أطلب الإسعاف؟... هو لم يكن يريد الحضور، وجاء قرب العاشرة مساءً إلى أقداره... سامحكِ الله... يكاد يلفظ أنفاسه...

قال «خالد» بصوت واهن ضعيف:

- لا أدري ما بي؟ هل غبتُ عن الوعي؟

قال الأب:

- ألديك مرض «السكر» يا بني؟

- لا...

- لكن هل تعشيتَ؛ أقصد تغديتَ أو حتى أفطرتَ؟

صاحت «سماء»:

- أعددتْ «مها» له إفطارًا شهيًا يبدو أنه «ضغط» على أنفاسه...!

- سامحك الله! لم أشرب لديها ماء بعد مكالمتك... وقد سمعتْها «مها»... فتركتُها وانصرفت وجئتُ من مدينة نصر مباشرة إليك لا من الحي السابع حيث أقيم... فقد استرحتُ قليلًا لدى صديق هناك... ورفضتُ تناول الطعام، وجئتُ إليك لئلا تغضبي...!

قال الحاج «مصطفى» في حنان واضح:

- يعني أنت لم تشرب ماءً منذ أمس؟

- نعم...

- وتتصل بها طوال اليوم فلا ترد، فترسل رسائل وأُرد عليك بعنف... نتيجة كلامها الذي لم أفهم منه أنها تغار كما أمها، وصدقتُ أن هناك التي تطرق أبوابك بعنف منذ أيام الجامعة، وأنك تستجيب بعد خمسة عشر عامًا... تخدعينني يا «سماء»، لنا حساب...!

قال «خالد» في رقة:

رجاء هي ضيفة... وديعة لديك لا تؤذيني فيها!

لمعت عيون الأم بالدموع، فيما كانت تصيح:

- أتي لكِ بهدية من الفاكهة وهو جائع.. فصدمته يا «سماء»..!

جهزي طعامًا يا «صفاء»...

- لن آكل...!

قال «الحاج مصطفى» في حزم:

- بني إنك لا تعرف حماك «الحاج مصطفى»، ربما تراني طيبًا هادئًا حنونًا، ولكن لي طبع من وراء الطبع، يبدو أنه يجب أن أحذرك منه، لئن لم تبق لتأكل ثم أوصلك، و«سماء» معي الليلة تعويضًا عما رأيت لـ... لـ... لـ... قلبي لا يطيعني أن أقول لأخاصمنك...

لمعت الدموع في عيني «سماء»، فيما كان «خالد» يقول:

- سآكل من الموجود... لكن أريد قطعة سكر...

قالت السيدة «آمال» في خجل:

- حُرِقَ دمك من الآن... يجب أن تكون أكثر صبرًا.

ابتسم في وهن وهو يتناول السكر من «سماء» التي قالت في عذوبة:

- المشوار طويل يا سيدي...

- بحرق الدم...

- بل بتلطيفه...

ضحك الحاج «مصطفى» وهو يضرب كفًا بكف ويقول:

- أنت وحيد والديك وهي أول فرحتنا...!

قالت «سماء» في سرور:

- أبي لا تُعصّهِ عليّ...!

فيما اعتدل «خالد» ليقول:

- أقدر غاليًا ثقتك فيّ... ولكن... فقط... لا تؤلمي أبدًا قلبي الأخضر... فقد تركتُ بإرادتي قلبي بقربك، بل لديك دائمًا.

محمد ثابت توفيق

إسطنبول - شيرين إيفلر- مساء الجمعة

٢٠ من جمادى الأولى/ ١٤٣٨هـ

١٧ من فبراير/شباط ٢٠١٧م